

وكنوز سبعين عبده

الجمعة البتيمة

مجموعه قصص مشرقية

مطبعة عطايا بابا بالهارة

فهرس

صفحة		صفحة
١٢٣	شهادة لله	٥ مقدمة
١٣٤	الخامس في الاليسانس	٧ الجمعة اليتيمة
١٤٥	الصليب الأحمر ...	١٥ الدكتور و
١٥٦	نورما شيرر	٢٨ ليلة حظ
١٦٨	أجل هذه هي الخمر .	٤١ تحت القباب
١٧٧	واسطة	٥٣ الساعة ١٢ ...
١٨٧	البعث	٦٢ الشيخ عفريت ...
١٩٩	ابن الله	٧٣ دم فرعون
٢١٤	مصرع حمار	٨٥ في كف عفريت ..
٢٢٤	أم قويق	١٠٢ نائب ديروط
		٩١٠ باب الخدم

مقدمة

« هذه مجموعة محاولات لعمل قصة مصرية ، طريقتى فيها ،
« طريقة الفلاح الجالس إلى جدار كوخه فى ضوء القمر ،
« بعد يوم زاهر بالمتاعب ، يعزف على الناي إنه نغم ،
« واحد تقريبا برده المسكين ، نغم ساذج متشابه قليل الدسم ،
« فقير الضوابط والموازين ، ولكنه صادر من قلبه ، معبر ،
« عن ظمئه الروحى إلى نبع مقدس مجهول يحاول الوصول ،
« إليه ، فيضرب على غير هدى ، فى تيه لا دليل له فيه . . . »
« لقد خلت حياتى من كل الدراسات الأدبية التى كان ،
« يمكن أن توجه هذا الظما الذى أحس به توجيهها مجديا إلى ماء ،
« النبع المقدس ، فان كنت كتبت قصصا بعد ذلك فأنا لأشكو ،
« أو أتهد ، أو أضحك ، أو أغنى على طريقة الفلاح والناى ،
« وبعد فمن حسن الحظ — حظى أنا على الأقل — أنه لم ،
« توضع حتى الآن فى مصر حواجز جبركية لفن القصص نحول ،
« بين البضائع الرخيصة وغمر الأسواق !! »

الجمعة اليتيمة

انقطع صوت المؤذن فجأة بعد أن نادى « حىّ على الصلاة ! » وحدثت جلبة خارج المسجد ، وتعالّت صيحات من عدة نساء ، واندفع المصلون جماعات إلى الطريق يتساءلون . . . ورجل واحد فى جوار المنبر ، رجل عجوز هو والد المؤذن ، أدرك بخياله كل شيء ، فانتفض جسمه ولكنه ظل فى مكانه ساكناً لا يتحرك ، وكان ضريراً لا نور فى عينيه ، وكل قلبه نور ! . . .

لقد سقط المؤذن من أعلى المئذنة ، وكان يؤذن الظهر لصلاة الجمعة اليتيمة وكان هذا الأذان أذانه الأول ، وكان فى العشرين من عمره ، يستقبل بفرح ، إشراق شبابه ودنياه سقط من أعلى المئذنة فدق عنقه فمات . . .

وفى بضع لحظات سكنت الجلبة ، وابتعدت صيحات النساء ، وعاد المصلون إلى المسجد ، وكل منهم يلتقى نظرة

دامعة على الشيخ الضرير المفجوع الجالس في جوار المنبر ،
ومن شفة إلى شفة ترددت همسات المصلين ، لا إله إلا الله
إن الله وإنا إليه راجعون . . . والشيخ الضرير المفجوع
لا ينطق ولا يتحرك ، وإنما يهز رأسه كما كان يهزها ، وابتسم
راضيا كما كان يبتسم ، كأن الشهيد لم يكن ولده ولا قطعة
من حشاه . . .

كان الشهيد وحيد أبيه الشيخ شبانه ، وأمله الأول
والأخير في الحياة ، وقد لقنه القرآن حفظا وترتيلا ، وأنفق
على تعليمه بالأزهر ثلاث سنوات ، أصبح فيها في نظر سكان
القرية جميعا شيخا من شيوخ الاسلام ، وأصبحت يده تقبل
من رجال في سن أبيه ، وقد استخلفه أبوه اليوم على مئذنة
المسجد كما استخلفه على المحراب وإمامة المصلين . . .

ولأول مرة في حياة الشيخ شبانه ، جلس في جوار
المنبر يسمع أذان الظهر كسائر الناس ، هو الذي كان مؤذن
القرية منذ خمسين عاما مضت لا يذكر الذاكرون أنه تخلف
فيها يوما عن أذان .

وكان يعيش على ضريبة يتلقاها من القرويين ، قمحا في موسم القمح ، وذرة في موسم الذرة ، وشعيراً في موسم الشعير وكان لحلاق القرية ونجارها ولحّادها ضريبة مثلها في محصول الفلاح ، وكان كل منهم يترقب الموسم ليطالب بنصيبه ، فيكتاله بنفسه والفلاح يساومه ، ويغشه ويقتص من نصيبه ما استطاع ، إلا الشيخ شبانه فقد كان يجلس في منزله ، ويوافيه نصيبه حيث هو بالسكيل الوافي ، وبلا مساومات ، وفوق حظه حفاً لأنه كان محبوباً من سكان القرية ، وكانت خدماته التي يؤديها لهم خدمات تتعلق بالدين والإيمان ، وإيمان الفلاح راسخ كالجبل ، جارف كالشلال ، عميق بسيط يخاف الله ...

وشعر الشيخ شبانه في مكانه الجديد بجوار المنبر أثناء أذان الظهر أنه في المنفى . ولكل إنسان مجده ، ومجد الشيخ شبانه كان في جوار الله على قمة المئذنة ، وكان يتمنى أن يموت وهو يرفع عليها صوته بالأذان ... فلما تركها شعر أن قلبه قد فارق وطناً يحبه وكأنما مات له ولد ، ولكنه مع ذلك

مسح من عينه الضريرة دمعة سرور هادىء على أنه إنما
يستخلف نطفة منه على معالم عزه ودينياه . . .

وحينما نادى ابنه على المئذنة . . . الله أكبر ، الله
أكبر ، ورجع المصلون جميعاً نداءه وهم يتبادلون الاعجاب
بصوت مؤذنه الجديد ، غفر الشيخ شبانه لدينياه ما تقدم
من محنها وما تأخر وقبل ظهر يده بخشوع ، وذابت كل
المخاوف التي ملأت صدره وهو خارج من داره مع ابنه فى
هذا الصباح . . .

كان صدره ممتلئاً فى هذا الصباح بالمخاوف لان يوم
الجمعة اليتيمة - الجمعة التي لا أخت لها فى آخر شهر رمضان -
كان يحمل إلى قلبه دائماً ضبابية من الهم والشجن ، كان دائماً
يتوقع فى هذا اليوم كارثة ، وكل ساعة كانت تمر من النهار
كانت تترك نحسها لأختها ، وعند ما كانت تغرب الشمس
كان الشيخ شبانه يتنفس الصعداء كالذى فر من خطر محقق
ويجأ بالحمد والشكر والدعاء .

وعند ما أصر أعيان القرية وشيوخ الرأي فيها على أن

يستخلف الشيخ شبانه ولده في هذا اليوم تضاعفت مخاوفه
المبهمة ، ولكن شيئا ما أخرس لسانه فلم يحتاج ولم يتعلل
واستجار بينه وبين نفسه بخفي اللطاف .

وعلى الرغم من أنه وضع تيممة في عنق ابنه كان قد
ورثها عن أبيه ، فقد ظل قلبه يضطرب ، وقد سأل ابنه إن
كان يرى غيما في الأفق . . . قال كلا . . . ثم سكت قليلا
وسأله إن كانت الشمس مشرقة ، قال أجل ، فعاد إلى
السكوت ثم أوصاه للمرة الثالثة أن يلزم بناء المئذنة ولا يتكلم
على سورها الخشبي وهو يؤذن ، لأنه قديم وكثير من قواعمه
الرفيعة قد نخره السوس .

وعثرت رجله بحجر وهو يمشى بلا عكاز ولا دليل ،
وكان الشيخ شبانه في هذه السن ما يزال كالثور قوة ومثانة
بناء ، فبصق في الأرض بصقة يطرد بها النحس ، ثم رفع
وجهه للسماء ، وقال : اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكني
أسألك اللطف فيه . . .

وفي كل يوم كان يردد هذا الدعاء بلا تفكير ،

ولكنه في هذا اليوم شعر أن كل كلمة من كلماته تعصر في صدره بضعة من قلبه المملوء .

ومن أجل هذا شعر الشيخ شبانه بالمأساة كلها وهو جالس بجوار المنبر لا ينطق ولا يتحرك ، بينما الناس الذين لهم عيون ترى وتبصر ، خرجوا كلهم من المسجد ، يتساءلون عن الأذان المقطوع والجسد المصدوع .

ولم يكن أحد من المصلين يعرف كيف يتم الأذان ولا كيف تنتهي الصلاة ، لولا أن أنقذ الشيخ شبانه بنفسه الموقف فتحرك في مجلسه بجوار المنبر كمن يريد أن يقوم ، وبعد جهاد غنيف استطاع أن يقف على قدميه متكئا بكلتا يديه على المنبر ، ولا أحد يعلم ماذا يريد

وخطا خطوة إلى باب في جوف المنبر كان أعيان القرية يضعون فيه عصيهم ونعالهم ، فتناول من بينها عصا توكلأ عليها ومشى في طريق المأذنة والناس ينظرون إليه متوجعين هامسين ويخلون له الطريق .

ولأول مرة في حياته مشى الشيخ شبانه متوكئا على

عصا ، وانتقلت منه السبعون عاما التي ظل يسخر منها إلى اليوم في لحظة فأوهنت قواه ، وأطفأت في قلبه النور وجعلته يمشي في طريقه كالأوزة المذبوحة متعثرا بهذا وذلك
وانكفأ على وجهه مرتين وهو يصعد في سلم المئذنة ، وخارت قواه أكثر مما كانت خائرة ، وتخضب بالدم وجهه ولحيته ويداه ، ولكنه لم ييأس ، واستنصر بكل قطرة من دمه ، وبكل عصب من أعصابه ، حتى أدرك المئذنة ، في النهاية فرمي العصا من يده واستند إلى الجدار ، واستقبل الشمس بصدر مفتوح ، وقامة كقامة جبار انتصر في معركة حاسمة وفي بضع لحظات عاد شاباً أكثر مما كان

ومشي حول المئذنة يتحسس سورها بيديه حتى وجد الشجرة التي وقع منها ولده ، فأخذ يستلّ منها الخشب بسهولة ويضغطه بين يديه ، فيذوب مما فعل فيه البلى والسوس ثم نادى بأعلى صوته : حيّ على الصلاة ، حيّ على الصلاة ! ولكن لم يخرج من حلقه صوت ، فكرر النداء ، فخرج الصوت من حلقه ضعيفاً كأنه خارج من حجرة ميت ،

ولكنه لم ييأس أيضاً وأعاد النداء ، واستمر في الأذان ،
وصوته يعلو ويعلو ، والمصلون في المسجد يرجعون نداءاته
لا بتكرارها كما كانوا يرجعون نداءات ولده الشهيد ،
ولكن بقولهم لا إله إلا الله ، إنا لله وإنا إليه راجعون . . .
وبعد أن أتم أذانه استمر في أعلى ما وصل إليه صوته
يقول : اللهم إني كنت سألتك اللطف في القضاء . . . اللهم
إني كنت سألتك اللطف في القضاء . . . اللهم إني كنت
سألتك اللطف في القضاء . . .

ثم نزل من المئذنة . . .

فقط لم ينزل من السلم ! وإنما نزل من نفس الطريق
الذي نزل منه ابنه الوحيد ، ورجاؤه في الحياة !



الدكتور و...

صديق الدكتور (و ...) الذي أروى عنه هذه القصة
طبيب محترم الآن ، وله سمعة طيبة في الحى الذى يعيش فيه ،
وهو يرويها عن نفسه كلما سأله أحد عن الصورة الزيتية
المعلقة فوق رأسه ...

لقد كان قلبه يتحقق بشدة وهو يمسك المشرط ، ويقف
بجانب مريضه ، منتظراً سريان المخدر في جسمه ، ليبدأ
العملية الجراحية الأولى في عمله الحر المستقل بعد نواله الدبلوم .
وقد قمت أنا تحت إشرافه بإعطاء المخدر للمريض ، في
هيئة حقنة في الظهر من محلول « الاستوفايين » ، مشتركاً
معه في تقدير الكمية اللازمة ، واختيار المكان الصالح ،
والاستيثاق من كل شيء قبل البدء فيه .

كان الدكتور (و ...) هو الجندى الأول دائماً في

فرقته أثناء الدراسة . ولما فرغ منها كان صدره محلى بأكثر من مائة وسام ، وكان وراءه أكثر من مائة دعاء بالفلاح ، من عدة قلوب طيبة تحبه وتتنى له الخير والتوفيق . . .

ولما فتح عيادته كانت مكونة من خمس حجرات جميلة إحداها لإقامة المريض عند اللزوم ، وتفوح منها كلها باستمرار رائحة الصابون والليزول ، وعلى جدرانها كلها صور مختلفة ، موزعة على الغرف بعدل ودقة اختيار ، وكل أثنائها يتحدث عن نعمة موأية وذوق سليم ، وكل الذي كان ينقصها لتكون عيادة طيب حقيقية هو .. المرضى !!

لقد لبث الدكتور (و ...) ينتظر مريضه الأول ستة أشهر بصبر وأمل لا ينتهى ، وشوق عظيم . ويسائل عنه دائما فى أول كل شهر مطلع الهلال الجديد .

وكل دقة على جرس الباب كان يحقق لها قلبه باعتبارها بشيرا بمرضى . ولكن دقائق الجرس كان يتضح فى النهاية أنها من أصابع سليمة ... أصابع أقارب وأصدقاء ، أو باعة يعرضون بضائع ، أو زوار الأشخاص آخرين أخطأوا

فى العنوان ... وفى إحدى المرات دخل مريض حقيقى ،
وقوبل بالبشر والترحاب ، ولكنه طلب من الدكتور عدم
المؤاخذه ، وخرج لأنه كان يظن هذه العيادة عيادة الدكتور
اسماعيل !

ومع ذلك فقد حدثت المعجزة فى يوم من الأيام ،
ودخل المسيح المنتظر ، وكان فى هذه المرة يقصد الدكتور
(و ...) بالذات .

ولم يكن بنفس الصورة الخيالية التى رسمها الدكتور فى
أحلامه لمريضه الأول ، أى أفندى مهذب مؤدب ، فى
بنصره خاتم من الذهب ، وفى رباط عنقه الحريرى دبوس
من الألماس ، ويتسكىء من هذه الناحية على خادم ، ومن
الناحية الأخرى على عصا من الأبنوس ذات مقبض من
العاج ، ويشكو من الأرق والصداع ، وإنما كان (عربجى
كارو) أول شىء فعله عند ما دخل مكتب الطبيب هو أنه
جمع بسعال عنيف كل ما فى صدره من متاعب العمل المضنى
والشقاء المستمر ، ودخان الجوزة التى من الهند ، جمع كل

هذا في بصقة واحدة خرجت من فمه كما تخرج القبلة من فوهة المدفع ، فأصابت لوحة معلقة على الجدار المقابل ، يحرم فيها الطبيب على مرضاه البصق على الأرض منعاً لانتشار الأمراض ...

وثاني شيء فعله الحاج ياسين هو أنه سلم باشتياق وبدون تكليف على الدكتور ، وذكره ، وهو يضع على المكتب رزمة من الحبال كانت على كتفه ، أنه عرجي العائلة ، وكان يعرف المرحوم والده معرفة صداقة وجوار .. ولما جاء دور الاتفاق على أتعاب عملية الفتق الذي يشكومنه الحاج ياسين ، حدثت مساومات عنيفة ، وترددت بين الطرفين ألفاظ قاسية ، حطمت كل المثل العليا التي قضى الدكتور (و ...) في وضعها ستة أشهر ، للتعامل بمقتضاها مع مرضاه ، فقد اتضح له في النهاية أن الحاج ياسين لا يريد أن يدفع أكثر من جنيه على أن يكون الدفع بعد تمام الشفاء .. واحتراما لذكرى والده ، ولرغبته في التمرين بأي ثمن ، رضى الدكتور (و ...) أن يقوم بالعملية بهذه الشروط ..

وفي صباح اليوم التالي ، أثناء إعطائه المخدر والاستعداد
للبدء في العمل ، كان يوجد جمع من أهل وأصدقاء عم ياسين ،
مكوّن من خمسة رجال ، وثلاث سيدات وأربعة أطفال ،
ورضيعين ، تفرقوا في غرف الانتظار في العيادة وجعلوها
كلها كعش الزناير ...

ولم يستطع الدكتور أن يتنفس أو يعترض أو يقول لهم
شيئا ، لأنه كان يؤمن بالبخت الأول ، وبالنعمة التي لا ينبغي
طردها ولو كانت قشرة بطيخ ...

وفي انتظار فعل المخدر بالحاج ياسين وقف الطبيب إلى
جانبه يراجع في نفسه ، وقلبه خافق ، كل خطوات العملية
التي قرأها بالألمس في أكثر من كتاب واحد ، أربعين
مرة ، وبين كل مرة ومرة يحس جسده المريض بسن مبضعة
ليرى هل بدأ فعل المخدر فيتأوه المريض دليلا على استمرار
الاحساس ...

وفي النهاية بدأ الدكتور يحس بالقلق وينتقل بنظره
هامتا بيني وبين زجاجة الاستوفايين ، ولما فشلنا في إيجاد

سبب معقول لهذا التأخر في فعل المخدر ، بدأ الذعر يتسرب إلينا معا ، وبدأت عيوننا تتكلم بألف احتمال وألف خطأ ممكن أو مستحيل الوقوع ، والألسنة عاجزة تماما عن إنفاذ الموقف بالكلام وعم ياسين لا يسكت أبداً ويسأل باستمرار وإلحاح غريب عن البنج لماذا لا يشتغل للآن ، ونحن نطمئنه بأن فعل البنج في الطريق ، ونحن أنفسنا في حاجة إلى اطمئنان وركبتاى الاثنتان بدأتا تضعفان عن حملي ، والدكتور (. . .) أخذ يتبسم تشجيعا لي ، ولكن ابتسامته كانت نفسها ترجانا صادقا للفرق المستولي عليه

ماذا يحدث لو أن زجاجة الاستوفايين كان بها مادة أخرى ربما كانت من سم ؟ . . . وماذا يقول يومئذ عم ياسين وأهل عم ياسين الذين فشلت كل توسلات التمورجي في إسكات ضوضائهم النافذة من باب حجرة العمليات ، وصرائحهم المزعج كلما سمعوا تأوهات الرجل الذي كان في نظرهم الآن عظيما جدا كالاله ؟ . . . وماذا نفعل ونحن ثلاثة ، أنا والطبيب والتمورجي وهم جيش ، ورزمة الحبال موجودة

في غرفة المكتب ، وفيها متسع لأعناق الجميع . . .
توجد في غرفة العمليات زجاجة كلوروفرم ويمكن
استئناف التخدير بها وهي فكرة طرأت علينا نحن الاثنين ،
ولكن التفكير سهل ، والأشق هو العمل ، ووضع الجرس
في رقبة القط فكرة خطرت للجرذان في لحظة ، ولكنهم لم
تنفذ في مائة جيل ، فأنا شخصيا ما زلت طالبا بكلية الطب ،
والزمالة بين الطالب والطبيب معناها العمل بلا مقابل ، فلا
داعى لتحمل تبعات بلا تمن ، وهو لم يكن في استطاعته أن
يستعمل الزجاجة والمبضع في آن واحد ، ولم يندم على عدم
وجود طبيب مساعد لأن الطبيب كان يتطلب منه أكثر
حما سياً أخذ هو من المريض ، هذا إلى أخذه نصيب الأسد
في المجد عند النجاح ، وانسلاله من المعركة بمهارة في حالة
التمشل . . .

والزمن كان يمر بشكل عجيب والثواني أصبح لها قيمة
زمنية في هذا الجو المشبع بالحيرة والقلق والاضطراب .
والدقائق أصبحت كالساعات . . . وحاول الدكتور (. . .)

أن يتسلى بالتصفير ، ولكن القناع منعه من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت أنفاسه بلا قوة ولا روح ، فاكتمى بالتحديق في أناتارة ، وتارة أخرى في زجاجة الاستوفايين باعتبارنا نحن الأثنين السبب في كل هذا الارتباك . .

تحدث مفاجآت كثيرة من هذا القبيل لأطباء قدماء ، يخرجون منها بفكاهة ، أو أكذوبة عامية على المريض ، ولكن الذين مارسوا شعور الطبيب الجديد ، الداخِل لأول مرة على دنياه العملية وعلى كعبة آماله في المستقبل بدون مرشد ، في استطاعتهم أن يدركوا مقدار الخرج البالغ إلى درجة الذهول الذي استولى علينا أنا والدكتور (. . .) في هذه اللحظات . . . كيف أن المخدّر لم يفعل فعله حتى الآن !

والحاج ياسين لو كان بالفعل قد مات تحت مبضع جراح قديم لما ارتبك كل هذا الارتباك ، « وبناقص زبون ! » ولكن في حالة الدكتور (. . .) كانت حياة الحاج ياسين مهمة جدا ، وقد آلى على نفسه إن خرج من هذه الورطة

سليماً في الجسم والشرف ألا يلمس أبداً مشرط الجراح !
وقد بالغ الحاج ياسين في التذمر ، وأخذ يمهّد لحذف
جزء من المبلغ الزهيد المتفق عليه بلعن الطب والأطباء والندم
على الزمان القديم ، زمان فتح الحمص ، والخزام والكيّ بالنسار ،
وكما جسّ الدكتور جلده بسن المشرط ليرمى هل سرى
مفعول المخدر في نصفه الأسفل كما كان ينتظر ، تلقى منقّة
جازعا نفس الجواب أى التأوهات واللعنات ...

ولم يكن معنا ساعة ، وشعورنا بمرور الوقت كان هو
الميزان الزمنى الوحيد ، وقد خيل إلينا أنه مرت على الأقل
ساعة منذ إعطاء المخدر ، وكانت هذه الساعة كافية لتسرب
اليأس إلى القلوب ...

واتفقنا فيما بيننا على تأجيل العملية للغد ، إن تكن
هناك بقية في عمر عم ياسين وناداه الدكتور أن يقوم ...
وفرّح عم ياسين جداً وظن أن العملية انتهت ، فامتلاً
وجهه بالبشر ، الذى حاول كتمانته ونادى الدكتور ...
« خلاص ولا إيه ؟ .. »

وأجابه الدكتور (و...) هذه كانت « بروفة »
فقط . وقد وجدناك صالحا للعملية تماما وقادرا على تخطيطها
بمتعة النجاح !

وأضفت أنا إلى ذلك . أننا لسنا كالأطباء الآخرين
الذين يعملون العمليات بلا تأكيد من نتيجةها ويمتثلون
الناس ! . . .

وهو كان يردد طرفه بيسلاهة بيننا نحن الاثنين ،
وأخيرا نطق وقال . . . « أmaal ده كان كله لميه ، لميرة البنج
اللى كسرت ضهرى . والسكينة اللى أكلت من لحم بطنى
سبع حتات ؟ . . . »

وتكاتفنا على إقناعه أن المسألة كلها مسألة تجريبية
وتحضير ، وأن لحم بطنه ما زال سليما كما كان وأن ما يسميه
بنجالم يكن سوى ماء . وحلفنا له مائة يمين ، ونصحناه
بأخذ شربة كما فعل فى الليلة الماضية ، والعودة مبكرا فى
الصباح . . .

ولما خرج مقتنعا قوبل بالزغاريد ، وظن أهله أن خروجه

على قدميه معناه حدوث معجزة ، وبدأوا يقبلونه ويعانقونه
ويدعون للطبيب ، فلما تبينت لهم حقيقة الأمر أخذوه
وخرجوا يتهامسون ويتساءلون ، وبعضهم ترك وراءه عدة
الفاظ ونظرات رأينا من باب التسامح والحكمة اعتبارها
كأن لم تكن حسما للخلاف . .

ولما عدنا إلى غرفة المكتب ، وأصبحنا في العيادة
وحيدين ، تنفسنا نفس الذي أزيح عن قلبه جبل . . .
وأخرجت ساعتى من جيب سترى فرأيتها العاشرة والنصف
وظللتها واقفة ، ولكن لما رفعتها إلى اذنى وجدت قلبها يخفق
كقلبي تماما ، وسألت الدكتور عن ساعته ، فاذا الزمن
متفق فى الساعتين ، وكان مثار العجب والدهشة والذهول
أن الزمن الطويل الذى قضيناه فى غرفة العمليات لم يكن
أكثر من ربع ساعة . . .

زمن ضئيل فى الواقع ، ولم يكن كافيا لفعل
الاستوفايين . . . !!

وقبل أن نمسح ما تصيب على جباهنا من عرق . . .

عرق الخوف من حدوث نكبة للحاج ياسين ، وهو سائر في الطريق يحمل في جسمه فعل المخدّر المكنون ، سمعنا صراخ نساء في الشارع ، وضوضاء جمع كبير من الناس ، ثم قرعاً بعدة أيد على الباب ... ولم تكن عندنا مسدسات ولا أسلحة للدفاع عن أنفسنا غير المشارط الصغيرة التي لا قيمة لها أمام «النبايت» ، فأسلمنا أمرنا لله ونطقنا بالشهادتين !.. وفي لحظات كان الحاج ياسين ممدداً أمامنا على الأرض ونصفه الأسفل مشلول بفعل الاستوفايين !! وأصبحنا مسئولين أمام الله والتاريخ ورزمة الحبال وعدد من البالغ الصغراء عن حياة سبع الرجال ..

وبدلاً من أن نجد نبايت مشهورة في أيدي أعداء ، وجدنا نساء ورجالا متجمعين حولنا وحول الرجل المشلول يتوسلون ويבקون !... فقد نسي عم ياسين وأهله لحسن حفظنا عملية الفتق والمخدّر ، واتجهت أذهانهم إلى أنه «منقوط» وأن هذه «النقطة» قضاء من الله ولم يكن بالطبع من الحكمة أن نزرع من أذهانهم هذا الاعتقاد ...

وشفى عم ياسين من الشلل المزيف على أيدينا فى بضع
ساعات وقام كالحصان ، وعد شفاؤه معجزة وكانت هذه
المعجزة سببا فى ذبوع اسم الدكتور (و . . .) فى الحى
كطبيب عظيم فى يده سحر وفى شفتيه بلسم . . .

وفى المعيادة الضخمة التى يملكها الدكتور (و . . .)
الآن فى أجمل أحياء العاصمة والمكونة من عشر غرف ،
يرى الزائر ساعة حائط فى غرفة العمليات بعقارب طوال ،
وصورة زيتية موضوعة فوق رأس الدكتور . . . صورة
مكبرة لرجل مات بفتق مخثق فى إحدى المستشفيات ،
وعلى كتفه رزمه حبال ، هو المرحوم . . . الحاج ياسين !



ليلة خ...!

كان رجائي تملا . . . تملا إلى أظافر قدميه . . . وكل
قطرة من دمه كان نصفها ماء ونصفها الآخر زبيب . . .
وكانت ضحكاته العالية تشبه خوار العجل ، وتنجل
بصوتها هدير الموج ، ولم يكن على الشاطئ بعد منتصف
الليل ما يضحك ، إلا منظر جندي خفر السواحل معانقا
ركاز راية الخطر السوداء ، باحدى يديه ، ومتكئا بالأخرى
على فم البندقية ، وتائها بهذه الصورة في « تعسيلة » نعاس ،
ولكن رجائي لم يكن يضحك من الجندي لأنه لم يكن يراه
وإنما كان يضحك من كل كلمة يقولها رفيقه عباس . . .

وقد شاطره عباس في هذه الليلة عشرين كأسا من
الزبيب في بار صغير بشارع أفيروف بالاسكندرية ، تجلس على
صندوقه فتاة جميلة لها عيون تتكلم بكل اللغات ، وشعر مرسل

محلول يتموج ضفائر ، ضفائر على كتفها العارية وصدرها
المكشوف إلى ما تحت مجمع النهدين بقليل ، وكانت بابتسامة
حية ، ونظرة من نظراتها الحلوة الآسرة ، تذكرها بفراغ
الأقداح كلما فرغت الأقداح . . .

ولكي يضع رجائي المفتاح بيده المرتعشة في ثقب
الباب . . . باب الكاين المنعزل ، اضطر هو وزميله عباس
إلى إشعال علبتين من الكبريت عوداً بعود ، والمفتاح على
الرغم من ذلك لا يعرف الطريق ، لا في يد رجائي ولا في
يد عباس ، وكل عود يشتعل وينطفئ على فكاهة من أحد
الرفيقين ، فكاهة قذرة ، تدنس سكينة الليل ، وتدنس
جمال الأنثى يد الطافية مع الزبد من أفواه عرائس الماء ،
بل وتدنس نفس الأرجاس والذكريات النجسة التي خلفها
طول النهار في قرار البحر معاصي وشهوات المستحمين وغير
المستحمين ! . . .

وأفاق الجندي الغافل على ضحك الرفيقين ، وعلى ضوء
عيدان الكبريت ، ولم يكديتهاً بندقية لهجوم على اللصوص

كأى جندى شجاع ، حتى عرف صوت الرفيقين ، وأخذ
يضحك معها ملء شذقيه ، كلما غازلت سمعه إحدى النكات
وتولى عنها فى النهاية فتح الباب . .

وأراد عباس أن يشعل له عوداً من الكبريت يهتدى
به فى الظلام إلى ثقب المفتاح ، ولكن الجندى أطفأه بسرعة
وأخذ منه اللعبة بحالها ورمأها إلى آخر ما تصل قواه ، ثم
صاح به وهو يعالج الباب « هذا يساوى مجلس عسكرى
ياسيد عباس . . التستر على مهرئين ، وإلى أن يثبت أنكم
لستم مهرى حشيش ولا كوكايين ، أكون أنا قد فقدت
الأشرطة الثلاثة ، إن لم أكن قد فقدت بندقيتي وقوتي
وقوت العيال . . . هع ع ع ع . . . ومفتش السواحل
الجديد لا يملأ فمه غير الجنيهاات ! »

وفشل هو أيضاً فى إيلاج المفتاح ، لأن الثقب كان
مشغولاً بمفتاح من الداخل ، وكان الباب مغلقاً بمزلاج ،
فوضع الشاويش عطيه كتفه فيه ، وانكأ على كتفه بملء
قواه ، وانفتح الباب فى النهاية ، واشترك الجميع فى قهقهة

طويلة ضاع بينها وبين هدير الموج صوت كسر القفل
والرتاج . . .

ثم انصرف الشاويش عطيه وهو يجس بيده وأسنانه ،
قرصاً من المعدن تركه في كفه عباس ، ثم يدلك كتفه بيده
ويقول مخاطباً غير شخص ، « الله يتعبك يا مرسى افندى
زى ما تعبت كتفى . . . يعنى لازم تقفل الباب عليك أنت
وهيّه وتسكّر لحد ماتموت ! » .

وفي داخل الكوخ الخشبي ، كان الظلام كالكمحل
لا ترى فيه غير الأشباح بلا تفاصيل ، وكان الضوء الضئيل
الذى ملأ ظلمة الكوخ منبعثاً إليها من نجوم السماء ، قد أخذ
الشاويش عطيه أكثره معه لما قفل باب الكوخ ، وترك
أقله ساقطاً من كوة مفتوحة في الجدار الرقيق .

وبينما كان رجائى يخلع بنطلونه أصابت يده الممتدة
عين عباس ، فتأوّه عباس ، وسب الدين ، وتحسّس بيده مكان
المصباح حتى إذا وجدته سأل رجائى إن كان يوجد معه كبريت
فأجابه بالنفى فاندفع عباس إلى مرسى افندى النائم في السرير

فعثرت قدمه ببضع زجاجات فوارغ ، كنّ بقايا ليلة حظ
قضاها مرسى افندى فى الكوخ ، بلا حاجة من الخارج إلى
سمير يقارعه الأقداح !

وأحدثت الزجاجات الفارغة صوتا هائلا أضحك
عباس ، وبعث إلى شفّتيه ألف لعنة « لدين الظلام » ، ودين
الكبريت ، ودين المصابيح ، وما من ذلك شىء أيقظ مرسى
افندى الذى كان يبدو كالملائكة وهو نائم يغط فى السرير .
وحاول عباس أن يهزه بعنف ليوقظه ويسأله عن
الكبريت ، فوقعت يده فى الناحية الاخرى من السرير
على شعر امرأة ، وانزلقت من الشعر الناعم ، إلى الصدر
العارى ، فنادى زميله بصوت خافت لأول مرة « رجائى ..
رجائى .. تعال .. تعال .. هشت .. بشوئش ! ! »

وحاول كلاهما أن يوقظ مرسى افندى بلطف فى هذه
المرّة ، ولكن مرسى افندى لم يكن نائما بمقدار ما كان
نملا هو الآخر ، وكل ما فعله قبل أن يقع على الأرض
متدحرجا على أيدي زميله إلى ماتحت السرير ، هو أنه

لمن أم عباس « على الجزمة » مقهقهها . وكل ما فعلاهما قبل
أن يتمدد كل منهما على أحد جانبي السرير ، فيطوق بذراعه
النصف الذي يليه من جسم « جوليت » ، أن اشتركا في
قهقهة عالية ، اشتركت معها فيها روح القديسة النائمة ،
ضاحكة بلا صوت ولكن بتهد طويل كأنها في قرارة
العالم الذهبي تنيق من أعقاب حلم جميل !

وأطلت نجمة من نجوم السماء من كوة الكوخ
المنفتوحة ، وكانت نجمة عذراء ، فتلفت أقرب قطعة من
قطع الغمام الأبيض السائر نحو الشرق في سماء الاسكندرية
باحثا عن نور الفجر الجديد ، تلقتها غاضبة فانشحت بها ،
وكان في صفحة الغمامة ثقب صغير فاتفق وجوده بالصدفة
أمام عين النجمة العذراء .

.....

اشترك مرسى ورجائي وعباس في هذا الكوخ
المنزل على شاطئ سيدي بشر القديم ، أيام أن كان بكرا
لم تفرعه « الا كشاك » المنظمة ولا القوانين .

وكل منهم كان يساهم زميليه بثلاث الضرائب والايجار
والنفقات ..

وكان الثلاثة يعملون في عمل واحد ، ويتفقون في
الأهواء والمشارب والانحطاط ، وبلا معاهدات وجد كل
منهم أن ما يملكه أحدهم في الكوخ يملكه الجميع ، من
«البشكير» إلى البيجاما ، إلى قميص الحمام .. وبلا معاهدات
أيضاً ولا ضفائن ، وجد كل منهم نفسه في وسط فوضى
تفتر كل شيء ، من اللقمة إلى القدح ، إلى الزجاجة ، إلى
المرأة ، ولم يكن أحد منهم يشمئز أن يلحق بلذة ، إلا ناء الذي
ولغ زميله فيه ! ..

كان الكوخ قائماً في وسط قطعة من الفضاء تحيط به
من كل نواحيه ، وكان بحجمه ، ولونه الأخضر اللامع ،
وتعدد مرافق الحياة فيه ، يشبه الزعيم بين الأكواخ
الصغيرة الفقيرة المبعثرة من حوله هنا وهناك والتي كانت
تعمر بالنهار فقط ، وفي الليل كانت تبدو كشواهد قبور ،
ويبدو الشاطيء من أمامها ميتاً لا أثر للحياة فيه ، إلا حياة

الموج والسماك ، وحياة الكوخ الزعيم ، عامراً بالثالث
المقدس ، بعضه أوكله ، سامراً أو غير سامر على ميعاد أو على
غير ميعاد . . .

وفي هذه الليلة التي كانت بالصدفة في أعقاب يوم
أحد ، كانت كل الرمال المتددة أمام الكوخ ومن حوله
ما زالت ثمة من عطور الغواني اللوانى لامست أجسامهن
العارية طول النهار ، واحتمت في ظلهن من شعاع الشمس
ومن خطرة النسيم .

وفي ضوء النجوم أخذت كل ذرة من ذرات الرمال
تحدث أختها عما شاهدت من قصص ونمائم ، وبسمات
ونظرات ، وتُرى أختها المحرومة ، بزهو ، ما جمعت من أعقاب
السجائر ذات الكنار الأحمر والأزرق والمبسم المقوى
الصغير ، وتفاخر أختها الظمأى بما شربت طول النهار من
خمر ومن دموع ..

والأمواج تغطي بأحاديثها وأقاصيصها صوت الرمال . .
ولما تفتح الأقفاص مرة واحدة للسباع الجائعة المحبوسة ،

لا تكفي باللحم وحده ، وإنما تأكل اللحم « وتفرقش »
المظام ! .

وما أكثر ما تروى الرمال والامواج ! .

* * *

كان عباس أول من أفاق من الأربعة في الصباح ، ووجد
أنه في السرير عبارة عن شاهد ملك فقط ، لأن شريكه
الآخرين كانوا عبارة عن جسد واحد لا يعرف له جذع ولا
أطراف ، فضحك بلا حقد ، ثم قام فأيقظ مرسى أفندى
النائم تحت السرير بمجرد ماء ، وجره وهو يتألم من عنقه
وكتفيه ، ويلعن ويشتم ، إلى باحة الكوخ ، محاولاً إسكاته
ما استطاع بالقول والاشارة حتى لا يوقظ العصافير من
نومها السعيد ! .

ولما أفاق تبادل الزميلان نظرة وابتنسامة وتحية
عسكرية ، للفضيلة النعسانة ذات الجسم الواحد والرأسين
المتشابهين تماماً في لون الشعر ومجمل التقاسيم ، ثم ارتدى كل
منهما قميص استحمامه ، وخرجا يستقبلان أول أشعة الشمس

بإتسامة من الشفة وصلاة من القلب ، كما يستقبله المؤمن
الصالح الذي قضى ليله في الهجود والسجود . .

وانحل المغز النائم في السرير بعد لحظات ، فتقلب
رجائي وتقلبت « جوليت » على شعاع الشمس الذي هبط
عليهما من الكوة المفتوحة ، فغازل أجفانهما المغلقة علي بقية
من سواد الليل الدامس ، وعلى أثارة من ظلام القلب
النجس ، والأحلام السابحة بحرية مطلقة في أرض الشياطين .
وأعطى كل منهما ظهره لظهر أخيه ، وفي بقية من
القوة تركها لرجائي الدوار والخمار ، أخذ ساق رفيقته
فمصرها عصرًا بين قدميه ، فتأوهت بحركة ، وضحك هو
الآخر بأخرى ، وانقلب كل منهما يواجه الآخر بحضن
مفتوح . .

وفي اللحظة التي تراءى كل منهما للآخر هوت الأذرع
المدودة كأنها انشلت ، واتسعت الأحداق النائمة كأنها
تنظر إلى عين دامية من عيون الذعر والارهاب . . وتحطمت
بمعاول من حديد قلوب الاثنين .

وتفرت بوجه ذابل أصفر فوقفت في جانب السرير ،
وتجمع هو فناداها بصوت مذبوح متهدم تحت أثقال
شيخوخة مناجئة : « سهام ! »

وبدا الشبه بينهما الآن أكثر ما كان ، في الوجه
والقامة وفي لون الشعر والعيون ، وبالأخص في الصفرة
التي صبغت وجهيهما فجعلتهما كوجوه الأموات .

ودخل في نفس اللحظة مرسى وعباس ينفضان عن
جسديهما فضول الماء ..

ووضع كل منهما قبلة علي الخلد الأقرب له من خدّي
سهام .. وضحك كل منهما لمنظر الاثنين .. فقد بدا لهما
أنه منظر مغرمة ومغرم تنازعا في الوقت الأخير ! ...

وفي الواقع كانت سهام واقفة كالصنم مستندة إلى قائم
السرير ، تاركه جسمها لمن يشاء كما يشاء ، محدقة بعين
لا تطرف في وجه رجائي ، وبنظرة فيها ذلة واسترحام ،
وخضوع تام لما عساه أن يكون .

وكانت كل عين من عيني رجائي الذي عاش طول

حياته يطاء أعراض الناس بلا رحمة ، فيها صورة لطاغية
مسترق أسير ، لم يقدر له حول ولا قوة ، ينظر بلا أمل
ولا رجاء إلى شرفه الممرغ بقسوة في الأوحال . .
وكل محاولة انقاذ أو انتقام كان معناها عند رجائي
مضاعفة التضيعة . . . معناها شارة سوداء خالدة لا تمحي
أبداً من الجبين ، معناها وصمة دائمة لا تغسلها لا قوانين
الأرض ولا شرائع السماء . . .

وفهمت سهام بكل سهولة معنى نظرة اليأس التي
شاعت في وجه رجائي ، اليأس من إنهاء المنظر على غير ما كان
مقدراً له في حساب الأقدار . . . فتقبلت الستين قرشا التي
وضعها لها مرسى أفندي في حقيبتها ، ساكنة ، ولم تحاول
لا أن تعترض ولا أن تساوم ، وسمعت وكأنها تمثال من الرخام
الألفاظ التي همس بها مرسى أفندي في أذني رجائي بصوت
صاحك ، سمعتها وكأنها في أذنها قطرات من صهارة الرصاص
« من فضلك لما تحب تعمل غرام ، إلباه عمله ف ييتكم
وعلى حسابك . . بونجور . . ! »

وانتهت ليلة حظ ، وانتهت معها قصة . . قصة ستظل
بلا ختام ، لأنه لا يدري أحد إلى الآن من كانت سهام
بالنسبة لرجائي ، ولا من كان رجائي بالنسبة لسهام . .

وكل ما عرفه مرسى وعباس والشاويش عطية أن سهام
لم تعد إلى الكوخ أبداً ، وأن رجائي لم يعد أبداً لا للعمل
ولا للبلاج .

والرمال نفسها لم تبج بشيء في هذه المرة ولم تنطق
الأمواج ! . .



مَحَبَّة الْقَبِير

عَبثًا حاولت أن أفتح شفتي صديقي عن سر ذلك
الشيب المفاجيء الذى اكتسح رأسه أعمر ما كان بسواد
الشباب . كلما كنت أستدرجه إلى ذلك السر كان يكسر
جفنيه ، ويرسل عينيه إلى منظور مبهم فى ماض عميق تموج
فيه الذكريات ، ثم يتسم لى ساخرًا ، ويدعى مرة أنه شيب
الهرم ، وهو الذى لم يشرف بعد على الدنيا من سفح الثلاثين !!
وأخرى يزعم أنه خضاب أبيض يتقى به العين ، ويتخذه
زلفى إلى وقار الشيوخ . وأحيانًا ، حينما يكون بمعزل عن
روحه الضاحكة ، كان يستسلم للسكون ، فاذا ألححت عليه
غاضبًا ، قال لى « صبرا » ثم أردفها بإشارة من يده ،
وحول الحديث بمهارة إلى مجرى جديد .

تعودت هذا من صديقي وظننت أنه سر مقدس ، دفنته

يد محبوبة تحت هذا اللسان الأمين ، فاختارت له كفناً لا يرث
وقبرا لا يبلى ، وآليت على نفسي ألا أحدث له من سره ذكراً .
وفي منتصف مايو الماضي كان صديقي يضيفنى فى قريته
ثلاثة أيام . وفى اليوم الثالث منها ، وبينما كان قرص الشمس
الأحمر يتهياً للغروب عرض عليّ صديقى أن أصحبه إلى
زيارة قصيرة بين المقابر ، فدهشت لهذه الرغبة الفذة فى
مثل هذا المغرب الرهيب ، وتصورت المقابر حينئذ مستغرقة
فى نومها الخالد المحزن ، وتخيلت القبور القروية التى لا تكاد
تبين من الأرض فى صمتها الرائع ، وتهاوت بخيالى تلك
الجيوش الجرارة من تصورات الطفولة ، وتلك الأشباح
الهائلة التى حدثونا يومئذ أنها تسكن خرائب القبور ،
وتجوس خلالها فى الظلام .

ذكرت كل هذا فانصرف شعورى عن هذه الزيارة ،
وحدثنى نفسى أن الحياة تكفينا أحزانها القاهرة السليطة ،
ومن الظلم أن نسوق أقدامنا المتعبة للبحث عن حزن خيالى
جديد .

قلت : يا صديقي اني اكره زيارة القبور في الليل ؛

قال : أتخاف ؟

قلت : ربما !

قال : سأحدثك هناك حديثاً شائئاً ، سأقول لك

كيف اشتعل في رأسي ذلك الشيب العجول .

قلت : بهذا الثمن وحده أقبل .

وسرت معه وقد غلبني علي خوفاً حب الاستطلاع

وفتنة الشيء المجهول .

هل يمكن أن يتسم إنسان في هذه البقعة الموحشة

والدنيا كلها تحت جناحي هذا السكون الحزين ؟

أينما وضعت القدم أحسست تحتها عظاماً تتحطم ،

وحيثما أرهفت الأذن سمعت الأنين الصامت الذي يلا هذه

القبور منذ هبط عليها أول نزيل ، وكما نشرت معطسيك

شممت رائحة الموت ، الرائحة الخفيفة التي طالما اختفت بها

الضحايا وسالت علي عذباتها الأرواح .

وقفنا إلى ضريح تعلوه قبة جثمت في أقصى المقبرة
كأنها راع جريح لا يستطيع أن يحمى قطيعه من هجمات
الذئاب . فقال صديقي إنك الآن في حضرة « سيدى
أبو الليل » ولى هذه القرية ، وصاحب الكرامة فيها
وحاميهامن الجنة والناس .

أعجبته من صديقي هذه الديباجة فقلت خاشعاً مبتهلاً :
« الفاتحة إلى روحه » وبينما كنت أقرأها خيل لى أنى أرى
فى عيني صديقى آية من السخرية ، وفى ابتسامته الضئيلة
عاصفة شك مكنون ، ولم يترك لى لحظة أعتب عليه فيها بل
أنشأ يقول فى صوت ساحر قوى متسق النبرات .

« منذ عام كانت توجد قطعة أرض موات فى وسط
حقل مزروع على مقربة من هذه المقبرة . كان صاحبها ينثر
فيها الحب فلا ينبت ، وكان الزرع المحيط بها ينمو سقيماً
أصفر ، ثم ينحضر قليلاً قليلاً كلما ابتعد عن هذه البؤرة الميتة .
حار صاحبها فى أمرها . وتحدث الناس فى شأنها ، وأخذت
شتى الآراء فيها تنبت بغزارة فى مختلف الرؤوس . قال

قوم أنها شؤم ، وتناقل آخرون عنهم هذه الرواية
فزادوا عليها أنها مسكن ليلي لروح شرير ، وادعى طائفة
أنهم رأوه بعيونهم على صور متعددة ، فمنهم من رآه امرأة
تسرح شعرها المجد بمشط من غصون الشجر ، ومنهم من
رآه رجلاً تتوهج تحت جبينه عيون من نار ، ومنهم من رآه
قزماً يدب على الأرض ثم يعلو ويعلو حتى يضرب برأسه
صفحة السماء . وفريق منهم زعم أن الروح قد تحدث اليهم
فما إلى فم . وأولئك دافعوا عنه بحماسة ، وأنكروا أنه روح
من أرواح الشر ، وأقسموا جهداً لإيمانهم أنه ملك كريم ،
أولى من أولياء الله الصالحين هاجر من تربة دنسة ، في
مكان مجهول ، لا يستطيع أن يتصل في رجسها بأنوار الله
وأرواح الملائكة ... وأحاديث الناس حينما تبدأ عن شيء
مجهول لا تعرف نهاية . وكان يشرف على هذه الأرض
شجرتا توت ، ذات يوم تسلق أحدهما طفل فأخذ يأكل
من ثمرها الحلو حتى امتلأ بطنه فاعتراه قيء ومفص شديد ،
ويومئذ ازداد الناس إيماناً بقداسة الروح ، وقدسوا من أجله

شجر التوت وحرموا على أطفالهم ثمره ، أو تأخذهم كرامة
« الشيخ » فإذا هم في الأجداث هامدون ! . وتناقل الناس
« كرامة » أخرى أن امرأة عاقرا طوفت سبعة بهذه
الأرض في فجر ليلة النصف من شهر شعبان ، فلما أدركها
الشهر التاسع ولدت لزوجها الشيخ العقيم طفلا لم تر العيون
نظيرا له في الجمال ، غير أنك تسأل عن مكان هذه المرأة
وعن وجود طفلها فتتعجب قبل أن تحصل على جواب ! . ومن
يوم أن راجت هذه الكرامة تدفق سيل الحديث عن هذه
الأرض وعن روحها الكريم ، جامحا يطمر تحته كلما صادف
من لسان معترض أو عقل طليق من سجن الخرافات
والأوهام .

أصبحت البيضة دجاجة ، ومات آكل التوت ، واختفت
الشياطين من هذه البقعة الطاهرة وقامت على أنقاضها
الملائكة ، والطفل الذي تمخضت عنه المرأة العاقر تكلم في
أقل من عام ، والأم نفسها بعد أن كانت واحدة أصبحت
نساء لا عدد لهن يزرن هذه الأرض المقدسة عاقرات ،

وينقلبن منها حاملات بأذن الله . وبركة الشيخ ، ومن غير
طب ولا دواء ! . . .

هالتي هذه القصص وخفت أن تصبح فتنة للناس ،
نخطر لي أن أسخر من هذه الأرض سخرية تظل إلى جانب
قصصهم أمثلة مضحكة على عجز ذلك الروح الموهوم ،
فلما عسعس الليل تسلحت بسكين وفأس وقضيب من
حديد ، ثم ذهبت وحيداً إلى هذه الأرض أبحث عن دفينها
لأرى رأيه فيما يشيعونه حوله من مزاعم الزور ، فإن لم يجبنى
جواباً شافياً هشمت رأسه الخيث . وإن لم أجد أحداً
ركزت لهم في مركز الأرض عصاً ، ونشرت عليها قباء ،
وجللت القباء بالنجاسة ، وجعلت من كل هذا نصبا يضحك
من أول قروى يطالعه في الصباح !

وكانت الليلة مقمرة يجول في سمائها سحب خفيف ،
تارة يختفي وراء القمر ، وأخرى يظهر من خلاله مرسلات
إلى الأرض أشعة ضعيفة تزيد في رهبة الليل البارد وسكونه
الجليل ، وعند ما أتيت الأرض شعرت في صدري بضيق لم

أدر أين مأتاه . قلت في نفسي إنه أثر الليل والوحشة والسكون
والتفت حولي عفوًّا فاذا شجرتا التوت قائمتان على حوافي الحقل
كنذيرى شؤم وسوء ، وبدا لي أن شجاعتي رقت حينما حدثت
في ظلها المظلم . وخيل إلى أنني أرى خيالاً يضطرب هناك ،
لقد كان رأسى مزدحماً بتلك القصص الباطلة ، وكأنما تركت
هذه القصص على صفحته الحساسة صدى ، تردد الساعة في
عقلي بقوة . وانتشرت منه في جسمي قشعريرة باردة .
خجلت من نفسي وحدثت في الظل بقوة وإرادة فلم أجده
شيئاً . أخذت احتفر الأرض بالفأس حتى وصلت فيها إلى
عمق بعيد . وإذا طعن الثرى مرة خيل لي أن الفأس قد
صادفت جسماً صلباً أحدث فيه رنيناً أجوف كأنه صوت
مطرقة على صندوق فارغ . طعنت موضع الصوت من
الأرض بالسكين ، ثم حاولت أن استلّها فلم أستطع ، وسمعت
حينئذ عواء ذئاب يحمله الهواء من قرب ، فتصعب جيني
عرقاً ، وأدركتني قشعريرة أخرى أقوى من الأولى . وهياً
لي الجبن والوهم أن الفأس والسكين قد صادفتا جمجمة مدفونة

في هذه الأرض ، نخاتني الشجاعة كلها ، وتذكرت أخيراً
أنتي انسان ، وأنه مهما يكن هذا الراقد فله حرمة وله على
أخوته الأحياء حق الأكبار والأجلال . نقضت يدي
من تراب القبر وكنت الآن في الحفرة إلى وسطى ، ثم
تركت السكين حيث هي آية للناس على أني عبثت بالأرض
من غير أن يصيبني سوء ، ثم قفزت بقوة أريد الخروج من
الحفرة فإذا يد قوية تجتذني من أسفل الحفرة فتدنيني فيها
ووثب قلبي من صدرى هلعاً ورعباً ، واستحال دمي
كله إلى عرق بارد هطل من جبيني كالطر ، ودار رأسي ثم
لم أعد أشعر بشيء .

أفقت في الصباح على حركة قائمة وأصوات مدوية ،
وعلى مقربة مني جمهور كبير من الناس . فذكرت ببطء
وجهد كل ما مر بي في هذه الليلة السوداء . ووجدت
نفسى بعيداً عن تلك الحفرة التي احتفرتها يدي ، وفي
جوارى نمش ينقضون من الحفرة عظاماً ويضعونها فيه .
كانت كل عظمة تقبل من ألف شفة ، وتوضع على ألف

رأس قبل أن يحتويها النعش المكشوف .

تحسنت جسمي فلم أجد فيه أثرا لأذى إلا أن ثوبي
كان مقدوداً من الأمام قدماً مستطيلاً . من فعل هذا ؟

فكرت كثيراً فعرفت سر هذه اليد التي اجتذبتني
بالألمس وضحكت من نفسي ضحكا طويلاً . لقد غرست
السكين في الأرض فمرت في حاشية ثوبي ، فلما قفزت فعلت
بي ما فعلت ، وتركت لأولئك الناس باباً جديداً ينفذون
منه إلى كرامة فاقت سواها من كرامات الروح المقدس !

وعند ما فرغوا من جمع العظام . تركوا الحفرة كما هي
وحملوا النعش على أعناقهم ، وساروا في طريق المقابر ، وقد
شغلهم غنى سكرة الولاية ونشوة الفرح بهذا الولي العظيم ،
وتصور أن النعش وقف بهم في الطريق مرات !! ثم جرى
بهم في الطريق مرات وهذه آية الولاية في نظر الفلاح !!
وجدت نفسي وحيدا في لحظات فأقبلت على الحفرة
أتعرف معالمها ، فوقعت عيني على هيكل بندقية أكل حديدتها

الصدأ ، وعدا على خشبها السوس . عجبت لهذا الأثر
وتولتني رغبة حافزة لأفحص تراب هذه الأرض في هدوء .
أخذت أثره بين أصابعي حتي عثرت على سبع كرات من
المعدن عاتمها طبقة سميكة من الكدر والصدأ . كانت هذه
الكرات هياكل أزرار ، جمعت في ذهني كل هذه الآثار
ووضعتها على هيكل العظم ، فتألف منها شبح جندي أجنبي
رمنته صدفة تعسة إلى هذا القبر الغريب . وعلى هذا الفرض
بحثت من جديد فاذا صفيحه مربعة من معدن لم أشك لحظة
في أنها عقدة حزام ، وعندئذ لم يبق عندي شك في تاريخ
هذا القديس الجديد !!

بعد ساعة واحدة كنت أنظر إلى المرأة فأرى في
قرارها شبحا متوج الرأس بتاج من شعور بيضاء !
وبعد أسبوع واحد كان « الجندي المجهول » تحت قبة
عالية يحج إليه ويزار ، وتقبل أعبابه وتقدم إليه النذور ...
ما أشد سخرية القضاء بعقائد الناس !!

بعد أسبوع واحد كتب « لجورج » أو « جون » أو
سمّه باى اسم تشاء أن يصبح « سيدى أبو الليل » صاحب
الكرامة والمعجزة وتقف أنت على قبره فتقرأ له الفاتحة
فى ذلة وخشوع !!

وفى هذا المصنع يا صديقى خلق معظم الأُلياء . .



البرقعة ١٢

وقفت على باب السجن ، وفي يدها صرّة من الشاش
الأبيض فيها برتقال . . . تنتظر ساعة الظهر ، أى ساعة
الافراج عن زوجها شعبان . . .

تأخر البرتقال في هذا العام ، أو هكذا خيل لزینب ،
وكانت تسرح به في الطريق . . وفي هذا الوقت المبكر من
فصل الخريف كانت كل بواكير البرتقال في السوق ما
زالت خضراء . . .

ومن أجل أن تحصل على عدد من البرتقال الناضج ،
تستقبل به أوبة زوجها من الظلمة والحرمان والأسر الطويل
منحت زارع البرتقال قبة ، وهو أخذ منها بالقوة ثلاث
قبلات

وفرت زینب من قبضة القروي الوقح كالطبي المذعور

وتركته نشوان .

كان زوجها شعبان يحب البرتقال ، وكانت هي تحب
البرتقال من أجل شعبان ، وكانت البرتقال هو الذكرى
الكبرى التي وصلت بين الحبيبين بأصرة الحب ثم بأصرة
الزواج ...

وقد حدث هذا منذ عامين ...

وكانت زينب يومئذ فتاة طائشة... ولم يكن لا بتساماتها
عدد . وكانت لها سن ذهبية بين أسنانها اللؤلؤية كأنما وضعها
هناك تيممة من شره العيون . وكان منديلها الأسود المعصوب
بمنتهى العناية حول وجهها الأبيض المستدير ، يضاعف من
بياض وجهها المشرب بحمرة العافية وعصير ألف وردة من
أنضر ورود الربيع ...

ولم يكن منديلها وحده هو الأسود ، فقد كان الأشد
سواداً منه مقلة عينها الناعسة ، وثوبها القصير المنحسر عند
ركبتيهما عن ساقين عاريتين تجلت في صبيها قدرة الله ...
وفي كل القهاوى والنوادى التي كانت تمر بها على

شاطيء النيل بالمنصورة « بمشنة » البرتقال ، لم يكن يعلو على صوت حجارة الرد ضاربا بعضها في أافية بعض ، إلا صوت شبشب زينب ذى الكعب العالى حائرا بين قدمها والأرض . ولم يكن فى الوقت نفسه أجل من ضحكات زينب العالفة الملحنة بمهارة ، إلا صوتها هى وهى تنادى بملء نفسها . . . « إالى أحلى م الشربات يارتقان ! »

وكل الناس كانوا يشترون منها البرتقال فى الشتاء والتين فى الصيف ، لاشوقا إلى البرتقال والتين ، ولكن شوقا إلى المتعة بزینب ، وبضحكاتها الندية ، ووجهها الجميل .. وكانوا جميعا يتركون لها تحديد الثمن كما تشاء ، والمساومات التى كان بعضهم يلجأ إليها كانت مساومات صورية الغرض منها الاحتفاظ بزینب أكبر زمن مستطاع .. وكانت الأيدى أحيانا تترك البرتقال والتين خلصة وتمتد إلى يدها هى ، ثم إلى ذراعها وهى تكسر عينها ، وتضحك ، وتكئ بملء حنجرتها على النغم الأخير . . وكانت أسعار التين والبرتقال ترتفع بشكل خيالى فى هذه الأحوال . . .

ولم يكن يوجد بالمنصورة أحد من رواد القهاوى
لا يعرف زينب ، أو قل لم يفكر فى زينب ، تفكيراً طويلاً
مرة واحدة على الأقل . . . من عسكرى النقطة الذى كان
يسمح لها بارتكاب كل المخالفات ، إلى حضرة صاحب
السعادة . . الحكمدار !

ومع ذلك وبالنسبة لمختلف الأقاويل التى كانت تحيط
بحياة زينب - وهذا طبعى - وللوسط المضل الذى عاشت
فيه ، يمكن أن يقال إن زينب كانت فتاة عفيفة ، وإنها زفت
عذراء لشعبان الجزار .

وخلعت يوم العرس ثوبها الأسود ، ومنديلها الأسود
ولأول مرة بدت فى ثوب ملوّن كأنها النحلة الخضراء .
وعلقت « مشنة » البرتقال فى سقف البيت كتذكّار
وجلست تفكر فى شعبان ، تفكر فيه وحيدة ، لأن
بيت شعبان لم يكن به أب ولا أم ولا أقرباء ، وكانت سعيدة
بهذه الوحدة ، فى أرض الأحلام .

وحتى عجينة الخناء عجنها بنفسها ، وتخصّبت بها بلا

مساعد . ولما جاءت « أم ابراهيم الماشطة » ورأت أن لا عمل لها في هذا المنزل خرجت منه غاضبة تقول :

« وى من هذا الخضاب يابنية . . . وى كأنه العدم . . . كأنه الدم . . . كأنى بزفافك زفافا إلى قتل ! »

وبكت زينب ، وكانت تحب زوجها شعبان ، تحبه كأنه ملك . ونعيب اليوم كان أرحم على سمعها وقعا يومئذ من صوت أم ابراهيم . . .

ولما دخل عليها شعبان ، همت به وقلبا يتحقق خفقة الظير الذبيح . . ولم يكن شعبان وحده ، بل كان وراءه جند وناس ومن حوله ضجيج وعجيج .

كان شعبان قد طاع نداء التقاليد في طائفته ، فأثبت رجولته في ليلة العرس وأثناء الزفاف ، ولكنه بالغ كثيرا في البرهان ، فقلق رأس رجل مس زينب بفكاهة ، وكان لا بد له أن يجرح أحدا في هذه الليلة لأتفه الأسباب ! نزولا على حكم هذه التقاليد .

ولما بكت زينب على صدره ، شجعها بحضن ، وقال لها

وهو يسلم نفسه للجندى : « انتظرينى . . الحبس للجدران ! »
وظلت زينب تنتظره عامين . . تنتظره عذراء .

وعادت إلى مشنة البرتقال ، وإلى المنديل الأسود ،
وإلى الثوب الأسود يغطى ساقها إلى ما تحت الكعوب ،
وكان للسواد الذى كانت تلبسه بالأمس مزهوة لاهية ، معنى
أنساها ابتساماتها السخية ، وضحكاتها ذات النغم الملهل .

وامتلاً صوتها شجنا وهى تنادى بصوت لا يسمع . .
« إلهى أحلى م الشربات ! . . »

ومر العامان ولم تنس أبداً شعبان ، واحتفظت بثوب
عرسها لتلاقيه يوم أوبته فيه . .

وانزلت يد أحد المشترين يوماً فمست يدها كالعادة
فأنهرته صارخة ، وفرت منه بمشنة البرتقال وفى عينها نظرة
السبع السجين .

ومن هذا اليوم أخذ كثير من الناس يكرهون طعم
البرتقال ، ويسألون عن أسعاره الحقيقية فى السوق ! . .
ومع ثقل التضحية التى شعرت أنها مقبلة عليها وهى

تقدم ثغرها لزارع البرتقال ، يوم الافراج عن شعبان ،
تقدمت راضية إلى المذبح ، لأنها كانت تعي . ليوم عرسها
الجديد ، نفس المقدمات التي هيأها القدر ليوم عرسها القديم ،
البرتقال الناضج الأصفر الحلو تطعم منه شعبان ، وهو يطعمها
من قلبه وروحه وكيانه كله ، وتكون له كما يكون لها من
دون الناس جميعا ، الأم والأب والزوج والصديق والحبيب .
ووقفت بباب سجن « قره ميدان » تنتظر ساعة الظهر
بفرح يغمرها حتى القرار ، ووقفت في ثوب عرسها القديم
كالعروس مقبلة على يوم الزفاف . . .

وعاودها مرحها الأول فأخذت تبسم للجميع بسخاء ،
وكان شاووش السجن يطرد عن الباب كل المنتظرين هناك
بكلمة جارحة ، أو بضربة من عصاه . . . إلا زينب ، كانت
حينما يقترب منها ، تبسم له فيضحك لها وشاربه الطويل
يرقص ، ثم يلتفت للذين تركهم وراءه يطالبهم بالابتعاد
عن الباب ، وبالصمت والسكون ، ويلقبهم أثناء ذلك بأبناء
الكلب وأبناء الدروز .

أية رهبة تبعها إلى النفس تلك الكوة المربعة في باب
السجن ذى اللون القاتم ! والخشب الثقيل ؟ . الكوة التي
تفتح بحساب وتغلق بحساب ، وتقف بين النور والحرية وبين
مئات من العيون والقلوب كأنها جفن الزمان .
لقد أوشك قلب زينب يشب من صدرها لما دقت ساعة
السجن اثنتي عشرة دقة ، ثم فتحت الكوة المغلقة وخرج
منها أول السجناء الأحرار .

ولم يكن هو شعبان . .
وخرج السجين الثانى وقوبل هو كذلك بالزغاريد .
ولم يكن هو الآخر شعبان . .
وانتابها قلق ، وأدركت في هذه اللحظة أنها لا تعرف
كيف ترغرد كباقي المستقبلين . .
وعزّ عليها أن يحرم شعبان وحده من فرح الزغاريد ،
فمالت لمجوز بجوارها ، وعنقها يتطال إلى باب السجن حتى
ليكاد ينقطع : —

« والنبي يا خالة تبقى ترغردى لما يطلع شعبان . . »

وفتح باب السجن في هذه المرة كله ..
وعرفت زينب من مأمور السجن بعد ساعة أن الذي
خرج منه في نفس هذه المرة كان هو شعبان ..
وكل الجنود الواقفين بباب السجن حيوا شعبان بالتحية
العسكرية .. لأنه كان جثة في نعش ! ..
جثة قتيل هوت على رأسه قدر مملوء بالماء الساخن وهو
يشتغل في مطبخ السجن في اليوم السابق ليوم الافراج ..
جثة ضائعة محمولة على أكتاف أربعة جنود إلى المقابر
الخيرية لأن شعبان لا أهل له ولا أب ولا أم ولا أقرباء ..
ومع ذلك فقد كانت زينب تظن أنها أحلت نفسها من
لعنة العجوز الماشطة ، يوم كسرت وراءها معجن الخناء ،
ونذرت ألا يمس كفها طول عمرها خضاب .
وشرت زينب جرة البرتقال على قبر زوجها ..
وعادت إلى المنصورة لتنادى على البرتقال الأحملى من
الشربات ! ..
ولكن بلا نغم ولا صدى ولا روح ...

الشيخ عفریت !..

كان الشيخ عبد المتعال ابراهيم في نظر زملائه بالأزهر
شابا كفيف البصر على الرغم من مكابرتة في هذه الحقيقة
المرّة بالحاح .

كانت عيناه مفتوحتين ، وكل شيء كان يستطيع الدخول
فيهما ما عدا النور ! . . . ولكن الله أعاضه عن بصره حسا
دقيقا وشعورا مرهفا وأثقا يشم الزجاج ، وأذنا تسمع ديب
النمل ! . . .

ولثلا يجعل من حركات جسمه شاهدا على عماه ، حكم
بمنتهى السيطرة أصابعه فلم تعد تعيث بشيء كما تفعل أنامل
العميان ، وحكم رأسه فلم تعد تهتز وتدور على غير شيء كما
تفعل رؤوس العميان .

وكان الشيخ عبد المتعال يسكن مع شاب من زملائه

ومواطنيه القرويين يدعى الشيخ طنطاوى فى مندره بحاره
الجنبكية بشارع المغربلين ، وكانت دراستها فى مسجد الردانى
بالدرب الأحمر ، وكانت المسافه بين الدار والمسجد يختصرها
طريق مظلم مهجور ، اعتاد الشيخ عبد المتعال أن يقطعه فى
الفجر ذهابا إلى المسجد ، وأن يقطعه فى أول الليل إيابا منه ،
وكان يحفظ كل شبر ، وكل موقع حصاة فى هذا الطريق ،
فكان يمشى فيه بلا عصا ، متحاشيا أن يمشى فى سواه فيضطدم
بشيء أو أحد فيتهم بعماء ، وكان يقود فى هذا الطريق من
يصحبه فيه من زملائه المبصرين ، ضارباً لهم برهاناً لا شبهة
فيه على أنه مبصر مثلهم ، بل ومبصر أكثر مما يبصرون !
وكان لديه برهان آخر يحاج به من يماريه فى بصره ،
ذلك أنه كان يصفح الرجل لأول مرة ، فيعرفه بعد ذلك
من ملمس يده ، ويناديه باسمه ولقبه ولو غاب عنه عدة
أعوام . . .

وبرهان ثالث أنه كان يحاسب زميله الشيخ طنطاوى
على الحبة والدانق فى كل شيء من مطالب البيت ومرافقه

- إن كان يمكن أن تُسمى باسم البيت مندرجة لا تدخلها الشمس ولا يعرف طريقها الهواء ، بإيجار شهرى مقداره ثمانية قروش - فقطعة الصابون كان يحاسبه في ثمنها باعتبار عدد المرات التى استعملها كل منهما فى الغسيل ، وبقايا أرغفة الجراية كان يسأله عن كيفية التصرف فيها إذا لم تستعمل فى اليوم التالى فى عمل الثريد . بالاختصار كان يحاسبه على كل شيء ، ويراقبه فى كل شيء ، ويناقشه فى كل مليم ، إلا فى غاز الاضاءة ، فقد كان الشيخ عبد المتعال يدفع نصيبه فيه باعتباره منتفعا بالنور بلا مساومة ولا شجار كما دفع بنفس السهولة نصيبه فى ثمن المصباح !

وطالما لمس بيده أشياء فأبدى إعجابه بألوانها ولكنه كان أحرص دائما من أن يحدد هذه الألوان ... وكانت أقصى إهانة توجه إليه من زملائه أنه ضيرر وطلالما هان عليه أن يرمى بالكفر ولا يرمى بعماه ... وفى إحدى الليالى ناداه الشيخ طنطاوى وكل منهما متطّ في عنجريب مصنوع من سعف النخيل ، عليه حشية

قدرة من القش ، ووسادة من القطن أقدر ، وغطاء رخيص
متسخ من صوف الجمال :

— لعلك تذكر انه كان لى عليك ثلاثة قروش تعريفة

ياشيخ عبد المتعال

قال الشيخ عبد المتعال :

— أجل ياشيخ طنطاوى أذكر ذلك ولا أنساه ،

وموعدنا إن شاء الله يوم الخميس القادم فى قرافة المجاورين .

قال الشيخ طنطاوي : وتذكر يومئذ أنها أصبحت

سبعة قروش !

قال الشيخ عبد المتعال :

بغات الطير أكثرها فراخا

وأم الصقر مقلادة نذور !

قال الشيخ طنطاوى :

صقر أو غراب . . إني أريد السبعة القروش ؟ ولست

مكلفا أن أنتظر حتى تنهاوى عليك صدقات المحسنين فى المقابر

يوم الخميس .

قال الشيخ عبد المتعال . . : صبرا فستناها ، إن الله مع الصابرين ! قال متى ؟

قال : ضاحكا حينما أترف لك بها !

قال : أو تمارى فيها ؟

قال : أجل لست شيخ إسلام لا تغدى غدوة واحدة بأربعة قروش !

قال الشيخ طنطاوى : فانك إذن تشك فى الحساب ؟

قال الشيخ عبد المتعال : ليس ما أحس به نحو حسابك شكا ، إنما هو يقين !

قال الشيخ طنطاوى :

المسألة بسيطة . لقد اشتريت البطاطس بقرش صاغ .

قال : لا بأس . .

قال : والبضل بنكلة . .

قال : معقول . .

قال : والطاطم بثلاثة مليات !

قال : ضحك منك البائع ومع ذلك فليكن . . .

قال : والحمامة بخمسة قروش ..

قال الشيخ عبد المتعال وقد جلس في سريره جلسة الفزع
— أية حمامة ؟ ..

قال : الحمامة التي خطفتها القطعة السوداء ...

قال : أتعني القطعة التي لا يراها أحد ، ولا يسمع مواءها
أحد ، وتدخل من الباب والباب مغلق بالقفل والرتاج ...
دون هذا يا أخى « ويخلق » لك الذئب الذى أكل سيدنا
يوسف الصديق عليه أفضل الصلاة والسلام ! !

قال الشيخ طنطاوى : يخلق أولاً يخلق انك اشتركت
فى أكل البطاطس المطبوخة بحساء الحمامة ، والحمامة نفسها
ليس الذئب ذنبى أنك أعمى لم ترها بين مخالب القطعة السوداء .
قال الشيخ عبد المتعال ، وقد هزته تهمة العمى حتى
القرار !

لعلك إذن كنت معتمدا على عمى وأنت تكشف غطاء
الحلة كل دقيقة مرة ، لتأكل جناح الحمامة مرة ، ولتأكل
وركها مرة ، ولتأكل صدرها أخرى ... الله ، الله ... !

يا لها قطط تفتح الحلال وتأخذ ما فيها وهي على النار، يا لها
قططاً تأكل لحم الحمام وترمي عظمه في صفيحة الزبال . . .
وتكرّع الشيخ عبد المتعال تكريرة ضخمة أسمعت سكان
سيدنا الحسين ، ثم شفعها بضحكة هائلة ، وبثلاث ضربات
بيده على بطنه ، ثم استأنف يقول :

بطاطس بالحمام . . . اللهم انى أحمدك وأحمد الشيخ
طنطاوى حمد المشاكرين ، اللهم أدمها نعمة عليه وعلى قططه
السوداء واحفظها من الزوال . . . ثم عيَّ بيده قليلاً في
الأرض حتى عثر بمركوبه ، فأخذ فردة منه ثم قام فهوى
بها فجأة على رأس زميله الشيخ طنطاوى وعلى غير انتظار
وعدة مرات . . .

❖ ويهت الشيخ طنطاوى ، فلم يقو على دفاع ، ولكن
دهشته كانت أقل من خجله لأن ما قاله الشيخ عبد المتعال
كان صحيحاً كله ، إلى آخر حرف فيه ، فقد كان يمتحن
الحمامة على النار بين الحين والحين ليرى أتم نضجها أو لم يتم
وكان في كل مرة يعجز تماماً عن مقاومة الاغراء الذى كان

يملاً أنفه من رائحة الحمام المطبوخ ، فما زال بها قطعة قطعة ،
حتى أكلها كلها ، وأخفى بقايا عظامها في صفيحة الزبال حتى
لا يسمع زميله صوت العظم وهو يتحطم بين شذقيه .

وعاد الشيخ عبد المتعال بعد أن شفى غليله إلى سريره ،
وترك خصمه صامتا يشك لأول مرة في عين الشيخ
عبد المتعال هل هي ضريرة كما كان يبدو عليها ، أو أن بها
قبسا من النور . . .

وعادت إلى ذكره في هذه اللحظة ، بينما كان الشيخ
عبد المتعال يتمطى في سريره ويضحك ويعنى :

عجب عجب عجب عجب عجب قطط سود ولها ذنب
عادت إلى ذكره كل الأشياء الضئيلة التافهة التي كان
يستغفل فيها زميله ورفيقه وابن بلده الشيخ عبد المتعال ،
سواء في الطريق أو المسجد أو على طبلية الطعام ، وكل
حركات السخرية والاستهزاء التي كان يشترك فيها مع زملائه
على حسابه ومن وراء قفاه ، وندم الشيخ طنطاوى ، ووجد
لألم مرأى كيب الشيخ عبد المتعال على رأسه وفوق ظهره

راحة وسلاما في نفسه ، لأنه عدها عقابا بسيطا سريعا من
الله العادل يغني عن عقابه الأخرى البطيء الشديد ...
ودمعت عيناء ، ثم نادى الشيخ عبد المتعال :
أنا بيني وبينك الله يا شيخ ، ادفع ما تريد أن تدفع
ولعنة الله على الظالمين ...

وأجابه الشيخ عبد المتعال :
لا أدفع إلا نصيبي في البصل والطماطم والبطاطس ،
أعني ستين فضة تعريفيه ..
قال الشيخ طنطاوى باكيا :

حرام عليك والله العظيم يا شيخ عبد المتعال ... إنك
تنسي حساء الحمامة الذي أكلت به البطاطس ... فأكمل
القرش الصاغ وعلى الله العوض في الباقي ، وعلى الاحتمال
قال لن أدفع لك أكثر من الستين فضة تعريفيه ولا ملهم
وليكن هذا كفارة عن ذنبك ، ودعني أنم ، وقم فأطفيء
المصباح ...

وأشرق نور جديد على ذهن الشيخ طنطاوى ،

وتأكد الآن أكثر من أى وقت آخر ، أن الشيخ
عبد المتعال ضرير . . . ضرير . . . ضرير حتى العظم ، وأنه
لم يره وهو يأكل الحمامة ، وإنما كان يفترض ، ويستتبع ،
وقد صادف باقتراضه واستنتاجه وجه الصواب .

أطفئ المصباح . . .

لكن المصباح لم يكن موقدا في هذه الليلة ، لأن
الشيخ طنطاوي لم يجد به غازا ولم يجد في هذه الليلة ضرورة
للنور ! . . .

وأجابه في الحال :

مصباح إيه يا مولانا ؟ . . المصباح ما هو مطفى من
أول الليل يا شيخ عفريت ! !

وكانت الصدمة قوية في هذه المرة ، وأقوى من أن
تصمد لها براهيم الشيخ عبد المتعال على بطلان عماء ،
فسكن في سريره لا يتحرك ونسى الحمامة والسبعة القروش ،
وهذا هدوء الأموات . .

واستمر الشيخ طنطاوي يقول :

يا شيخ عبد المتعال ، عليك سبعة قروش . . . هل
تسمع ؟ . سبعة قروش ، سأخذها ولو من حبوب عيني
الاثنتين ، إن كان فيها حبوب . . . وموعدنا يوم الخميس
في قرافة المجاورين !

ولكن الشيخ عبد المتعال لم يكن هناك ، فقد تناوم ،
وعلا شخيرته حتى أسمع هو الآخر سكان سيدنا الحسين !!



دم فرعون

وقف كالمشدود ينظر تارة إلى الذبيحة ، وتارة إلى
يديه المخضبتين بالدماء . . . وكل شيء كان يلف في رأسه
ويدور .

لما خرج إبراهيم من داره في الصباح كان أسعد فلاح
في القرية ، له دار جديدة ، وأم حازمة وطيبة ، وخطيبة
صغيرة وحسنة ، وعنده جاموسة وراها عجل رضيع في
جيبه غرة بيضاء كفرة العجل آيس ، وخوارها العالي من
الفجر يملأ جوانب الدار .

البيت والأُم والخطيبة أشياء جميلة جداً في حياة
الفلاح ، وترفع عنه كثيراً من مظالم الرق الذي يعيش فيه ،
ولكن الجاموسة وحدها هي أجل وأقدس وأحب ما في
هذه الحياة . . .

الجاموسة في الريف هي عنوان الرخاء، وهي رحمة
للسماء، وهي الوطن والسكن والأب والأم والأخ
والصديق للفلاح ! .

هو وأهله جميعاً يأكلون ويكتسبون بأقل من جنيته في
الشهر، ويطعمونها هي وحدها بحوالي الجنيهين ! . . .

ويدعو الفلاح على أهله إن عصوه بالحزن والداء
والخراب في غير مبالاة ولا تفكير ولا شعور بضيق،
ولكن عند ما تعصاه جاموسته في الساقية أو المحراث،
يحاذر كثيراً أن تكون أبواب السماء مفتوحة، فيدعو لها -
بدل أن يدعو عليها - بالبركة والهناء وطول العمر والبقاء ! .

ولما يفقد الفلاح أحداً من أهله يحزن عليه ويبكي،
ويلجأ إلى الله، وينسى مصابه في أيام أو شهور، ولكن
عندما يفقد الجاموسة بحادث أو داء، قلبه كله يتحطم، وعقله
كله يضل، ودموعه كلها تنضب، وإيمانه القوى الراسخ
في رحمة الله يدكه زلزال . . . ولا ينسى أبداً ! . . .

وتذبح الجاموسة النافقة في الريف فتباع لهما على

الفلاحين ، بسعر أرخص قليلا من سعر اللحم في السوق . .
وحيثما تباع الجاموسة لهما تفقد أربعة أخماس ثمنها وهي حية ،
لأنها فقدت سحرها وسلطانها على النورج والساقية والمحراث
وكل رطل يقطع من لحمها كأنه قنطار يقطع من جسد صاحبها
المفجوع . . .

ولقد كان خوار الجاموسة في هذا الصبح البهيج الممتلئ
بأريج أزهار القول ، كزغردة العرس في آذان إبراهيم . .
كان خوارها الثاني في طلب الحليل .

وظل إبراهيم حتى أشرقت الشمس ، يتقلب على الفرز
في مضجعه المكون من قش السمار ، ويرسم الأمانى على
هذا النغم الحلو ، في صفحة خياله الصافي ، بريشة فنان موهوب
أمانى العرس والعروس ، والبنت والولد ، والمستقبل الطيع
الجميل . وكلها مشرقة من مطلع السعد واليمن في جبين
جاموسته بين قرونها الطوال ! . .

وأسى واحد كان يحزّ يومئذ في قلبه ، أنه سيودع اليوم
جاموسته التي عاشرها أكثر من عامين والتي سيديمها اليوم

ويشتري من ثمنها مهر عروسه وكل هذه الآمال والأحلام .
لم تكن الجاموسة ملكا لإبراهيم . . . كان يشاركه فيها
بحق النصف أيوب بك ، عمدة القرية ، وسريتها ، ووجهها
المرهوب .

رجل قصة حياته هي قصة ثروة جمعت بالسحت
والسرقات المقنعة ، والربا المضاعف ، والطفيان بلا رقيب ،
ودخول بيت القروى كالمنقذ ، والخروج منه بآخر قطرة
من الدم ، وآخر خيط من خيوط الرجاء .

كان يقرض المال بمنتهى السهولة ، وبأيسر الشروط ،
ويعطى عملاءه فوق المال ابتسامات . وفي سنة أو سنتين
يكون القرش قد أصبح عشرة قروش . ويرى الفلاح
محصوله محمولا بالرغم منه إلى مخازن أيوب بك ، وهناك . .
حشرة مبهمة تأكل نصفه ، حشرة بأسنان جهنمية ، ونصفه
الآخر يأكله القباني والكيال تحت رعاية وإشراف شيخ
الخبراء . وقبل أن يفيق من الصدمة يمد عليه محضر من المحكمة
رجل مطربش بنظارات ذات إطار معدني أبيض ، وتحت

إبطه حافظة أوراق ، ويركب حماراً ، وله ملابس قدرة من
العرق والتراب ، فيتغذى عنده ، ثم يعلنه ببيع أرضه في المزاد .
أما الأرامل اللواتي بلا طين — كأُم إبراهيم —
فكان أيوب بك يعطين العجول صفاراً ، يربيتها ، ولهن
فيها النصف عند ما تكبر وتباع . وكان يعطين أيضاً معها
ابتسامات ! :

والفلاح بطبعه شكور . وابتسامة عدوه الانجليزى
فى يوم من الأيام ، أنسته نصيبه من شعاع الشمس ، وحظه
من كبرياء الأحرار !

وعند ما كان أيوب بك يبيع أرامل القرية ما على
جسور أرضه من العشب والكلأ ، يرعين فيه عجوله
الشابة ، كانت قلوبهن تمتليء بالبشر والدعوات الطيبة
وعرفان الجميل . . .

وكنَّ يسرقن فى بعض الأحوال ثمر القرع والبامية
المزروعة على حوافى هذه الجسور ، وأيوب بك يسكت
ويبتسم ، ويتجاهل ، ويسد أذنه بكرم عن شكاوى الحراس

الذين لهم وحدهم تنصاعد لعنات المساكين . .
ويحدث في أحد الأيام أن تعدو العجلة بلا عقل على
شجرة قطن ، أو تأكل بلا حق عوداً من البرسيم ، ومن
هذا اليوم تعمل في دائرة أيوب بك قائمة خسائر ، والأرقام
تكبر فيها بمرور الأيام كالغفاريات ، وعند ما تباع العجلة
يضاف إلى هذه القائمة ثمن اللبن والسمن الناتج ، ويكون
سمسار البيع دائماً هو جزار أيوب بك بلا حاجة للذهاب
إلى السوق . . . وتخرج الأرملة في العادة بعد مراجعة
القائمة بدقة ، إما بجاردها وإما بدين بسيط تسدده عملاً كلما
دعيت إلى العمل هي وأولادها إن كان لها أولاد . .

والويل للضعيف . . .

لكن أم إبراهيم كانت من نوع آخر . كانت بنت
خمسین عاماً من البؤس والتعاسة والعيون الدامعة والقلب
المفطور . . والمحن علمتها أشياء كثيرة ، فكانت ترعى
عجلتها دائماً على جسور الفلاحين الصغار . .
وعاشت هي وابنها بعيداً عن مخالب أيوب بك . .

عاشا كلاهما فى القرية بلا صوت ، يسمان للناس معا ، هو
يسم لزملائه فى الحقل ، وهى تبسم لجاراتها فى الدار
ويعملان للقوت والحياة معا ، ويشقيان للقوت والحياة معا ،
ويكفلان بالعقل والروح وعرق الجبين هذه العجلة الناشئة
ويجلسان على مربوطها وهى تأكل عشاءها . هى تجفف
بحنائها وأقاصيصها عن جيده عرق الشقاء ، وهو يفصل عن
قلبا وضر الوحشة والترمل بألحان الناي . . .

عاشا بلا عدو ولا حاسد ، يرقبان الأمل مشرقا عليها
من العجلة ، ناميا بالعام كلما نمت هى بالأسبوع ، والأمانى
الجميلة ، أمانى الأم لولدها ، وأمانى الشاب لبيته المستقبل ،
تتسع وتتسع وتملأ الدار والحقل والأيام بالبشر والضحكات
عاشا سعيدين على الرغيف الخشن ، وعلى الفجلة
الخضراء ، وعلى البامية الفارغة ، وعلى اللحم فى المواسم
والأعياد أى عند ما تنفق جاموسة فلاح ، وتباع بخمس
نمها للقرويين

وعند ما أتمت العجلة حملها الأول ، وأخذها المخاض ،

أضيف إلى قائمة الطعام في الدار ، اللبن الرائب بلا قشدة ،
وعند ما يدخل اللبن دار الفلاح يخرج جزء كبير من
مظاهر الشقاء . لأن اللبن وراءه السمن ، والسمن وراءه
الكفاية من الذرة والثياب ، وإصلاح الدار ، والأفراح
والليالي الملاح .

ولذلك كان ميلاد العجل الصغير عيداً في دار إبراهيم .
كان نصف اللبن بحكم الشركة لأيوب بك ، وقد
حاول أن يترك نصيبه لأُم إبراهيم ويحاسبها عليه في يوم
التخالص ، فرفضت بمنتهى اللطف والأباء . . .

وحاول أن يبيعها قيراطاً من البرسيم بثمان رخيصة ،
ومؤجل إلى أي أجل تشاء . فرفضت كذلك بمنتهى اللطف
والأباء . . . ودعت له بعمار البيت وطول البقاء !

وفي كل مرة كانت ترفض فيها شيئاً ، كان شاربه
يهتز ، وكانت عينه تزداد ضيقاً علي ضيق ، وكان صدره
يمتلئ بالغليظ والحقد والبغضاء .

لأن هذه المرأة كانت أول قروى تجنب الوقوع في

شرّكه المنصوب .

وكان العيد الثانى فى حياة ابراهيم ، يوم خطب
عروسه « فواكه » من أبيها سليمان .

وكان عيده الثالث فى هذا الصباح بالذات ، وهو
خارج من الدار فى موكب ، تسير فى طليعته الجاموسة
وعجلها ، ومن خلفها هو وأمه وصهره سليمان ، ذاهبين
جميعاً إلى مقر أيوب بك ، ليبيع ابراهيم حظه فى الجاموسة
وابنها ، ويدفع صداق العروس ، ويعقد عليها فى نفس المساء ،
حيث أعدت فى داره معدات المولد النبوى الشريف ،
ووليمة ريفية دعا إليها الأقران والأصدقاء . . . أى رجال
القرية وشبانها أجمعين . . .

ومشى ابراهيم مزهواً بالأمل ، نفوراً بزنده القوية
التي أصبح عليها من الآن ، أن تحمي عروسه من أثقال
العمل فى الحقل تحت الشمس والمطر والشقاء . . .

فى دم الفلاح المصرى حقيقة عصارة أربعين قرناً من

الذل والخضوع ، والانتقال بسكون من سيطرة سيد قديم
إلى سيطرة سيد جديد ، لكن في عروقه أيضاً قطرات
من دماء عدة فراعنة ، وأخرى من دماء بضعة أنبياء . . .
وقد عرف الصبر الطويل والنوم على المحن ، ولكنه عرف
كذلك يوماً ما كيف ينفجر انفجار البركان . . .

والناس الذين تعودوا الفرع من منظر الدم ، وقفوا
اليوم كلهم حزاني في جوار إبراهيم ويداه مخضبتان بالدم ..
دم الجاموسة وعجلتها . . . دم الأمل القليل . . . دم المستقبل
المنتظر . . . دنيا إبراهيم كلها ودنيا أمه تصبح كحطام
القلك الفريق ١

عز على أيوب بك أن يخرج من تحت يده عبد ، وفي
قلبه أمل لم يهدر ، وفي حياته رجاء لم يتحطم ، وفي عينه شعاع
من نور . . .

ونادى سمساره الجزار . . . وكان على استعداد .

وقال لإبراهيم : تريد القسمة إذن ؟

قال إبراهيم : نعم

قال : وستزوج اليوم ؟

قال : أجل .

فنادى جزاره من جديد وشارباه يلعبان وعيناه
تضيقان ، وشفتهاه تنفرجان عن ضحكة شيطان :

— متولى . . .

— أفندم سعادة البيه

— اذبح هذه الجاموسة وعجلها معا ، واقسمها
نصفين ، فاعطني حقي وأعط الباقي لابراهيم . . . لأنه في
حاجة إلي اللحم اليوم ، فليأخذ منه ما يشاء !

وعادت من جديد إلى شفتيه ضحكة الشيطان . . .

وامتلاً الجو بالذهول . . .

وامتلات الأرض بدم الذبيحتين . . .

ومن قمة الجبل انحدر ابراهيم إلى قرار المستنقع
وتبددت أحلامه في لحظة وفقد الثروة والنشب والعروس
وأمانى الليالى الطوال ، فنادى أمه . . . أمي . . . فلم تلب
أمه النداء !

وغمس يديه في الدم السائل ، ثم وقف كالمشذوه ينظر
تارة إلى الذبيحة التي فقدت سحرها ، وفقدت أربعة أخماس
نمها ، وتارة إلى يديه المخضبتين بالدماء .

ولما انسلخ جلد الذبيحة للكبرى كله ، وانفصل عن
لحمها ، وانفصلت عنه الحوافر ، أخذ إبراهيم حافراً منها
فرفعه إلى شفثيه ، وأطلت من عيذه قطرة من دم فرعون ،
ثم رفع الحافر بين يديه ، ولا أحد يتوقع ما يحدث ،
فهوى به على رأس أيوب بك قفلقه نصفين
وانتقم إبراهيم في لحظة ، لألف دمة ، وألف يتيم ،
وألف بيت خراب .

ثم رمى بالحافر المخضب إلى ماتحت قدمي صهره ،
وناداه ووجهه كوجه أبي الهول
« آدى مهر فواكه يا عمى سليمان ! . . »

في كف عفريت

جلست رسمية إلى مرآتها تنظر إليها مرة ، وإلى رسالة
نشرتها بين يديها مرة أخرى ، فيمض بين شفيتها خيال
ابتسامة ، نصفها قلب محطم ، ونصفها كبرياء جريح . بالألمس
كانت تأتيها رسائل « شفيق » فواحة بالعطور ، في كل
حرف من حروفها قصاصة من روحه تحترق ، وفي كل كلمة
من كلماتها قطعة من نفسه تذوب ، وبكل سطر من سطورها
أمل من آماله يحيا وأمل يموت . ولكل رسالة منها نعيم
خاص تحملها إليه أجنحة ريشت في خياله من حب وتضحية
وإخلاص . أما اليوم . . . ، فما أبعد الفرق !! ورقة جافة
لا أريج لها ولا طيب . لا أمل فيها ولا ألم ، لا حياة ولا
روح .

« أنت فتاة في كف عفريت ، لا تصبرين على طعام
واحد ! وما دمت تتوهمين لرسائلك قيمة لا أصل لها ! فتعالى

خذيها غدا (الخميس) في الساعة الثالثة بعد الظهر بالملتقى
المعهود ومع هذا رسالتك الأخيرة وهي الوحيدة الموجودة
معي الآن . . . »

« ش »

سرح خيالها في هيكل الأسي فأخذت تحدث نفسها
وهي تسعى في ظلماته وتطوف . . . هل يمكن أن تكون
هذه الكلمات لي أنا ومن لسان شفيق ؟ هل أصبحت لا
أساوي في عينه كلمة العتب الرقيق ، وأسلوب الرجل المهذب ؟
حتى الخبر يستغليه على فيكتب لي بالرصاص ، يوم جرح
كتب لي من دمه يقول :

« فداك دمي كله . هذه القطرات ذكرى تهان ووفاء »
من يدري ؟ لعله لم يجرح في سبيلي كما قال ، ولعله لم يكتب
لي بدمه كما زعم . لعله دم ذبيحة أكل الوحش لحمها ، واتخذ
دمها وسيلة للتضليل والخداع ! كم كنت يومئذ طفلة
عمياء .

ويوم أهديته طاقة الورد فردها لي بعد أيام ، أعواداً

ذاوية الكأس والتاج ، ثم كتب لى معها يقول :
« حرام أن ألقى إلى الأرض بهذا الرفات المقدس .
كفنيه أنت يديك ، وادفنيه فى أصيص ثم دعينا نتخذه
ذخيرة نركو فى رعاية سرها حبنا الخالد »

رباه ؟ إذا كان هذا كذبا فأين الصدق فى العالم ، وكيف
يكون ؟ كان يضحك منى يومئذ والقلم فى يده يزور به هذا
الوجد المزيف والهوى الكذاب . كنت يومئذ ألعوبة فى
يده ، ككل فتاة تحلم أنها من قلب حبيبها فى الذروة ثم
تصحو لتجد نفسها لا فى الذروة ولا فى القرار .

امتلات عيناها بالدموع فتركت الرسالة من يدها ،
وأفرغتها فى منديل . ثم تهتت من صدر مثقل وعادت
تنظر إلى المرأة . « عيناى عيناى ، وشفتاى شفتاى ، ووجهي
كله هو هو الوجه الذى طالما عنت له القلوب واتجهت له
الأبصار .. محال أن اتخذ عنى مرآتى . وهؤلاء شهودى ما زالوا
كلهم أحياء ، ولو شئت لاتخذت منهم ألف حبيب ، فيهم
من هو أجمل وأرق وأكثر ذوقا ورجولة منه بكثير ؟

فهل يكون جزائي على وفائي له أن يصفني بهذه الرسالة
الجارحة فيتهمني بأني فتاة لا قلب لها تتجر بعواطفها كل يوم
في سوق ، ويرد لي رسائي لمجرد طلب مبهم من غير أن
يبيدي أقل رغبة في أن يحتفظ بها كأنها لا تهمه في قليل ولا
كثير ، ويكتب لي هذه اللطامات كلها بقلم الرصاص ..

لو أنني فقط أستطيع أن أنتقم ، لو أن في قدرتي أن
أسفك دمه يدي ! لو أنني أستطيع أن اقتلع حبه من قلبي
فأسحقه تحت قدمي كدودة حقيرة ، ثم أرميه في وجهه
بزراية وأنفة واحتقار ! »

كادت تمزق مندليها الحريري بين يديها وأسنانها غيظاً
وغضباً ، ثم أهوت برأسها على ساعدها باكية بكاء المعجز
والصفار .

« أبداً ما أحببته ولا هويته ولا خطر لي في بال ، من
هو حتي أختصه بقلبي من دون الناس أجمعين ؛ إن وجهه
كوجه القرد ، وعينه كعين الحمامة ، وله آذان كآذان الحمار .
تفو . سوف أستخلص رسائي منه ثم الويل له يومئذ .

سأحمر ذكراه من قلبي ، سأمزقها ، سأحرقها ، لن أدع له في قلبي من أثر ولا وجود . . . النذل ، السافل ، الحيوان !! وقبل أن تهدأ هذه الثورة في رأسها الهاجم تناولت المسكينة رسالتها المردودة ، الرسالة التي كشفت لها عن خلقه السافل . فأعادت قراءتها ، ولها على كل جملة وقفة وخجلة وتفكير .

« شفيق :

« أخبرني أبي بالأمس أن شابا من عائلة طيبة وفي مركز حسن قد خطبني إليه ، وأنه لم يرد أن يبت له في القبول حتي أراه ويراني ، وأرضى به فيزفني إليه . لا أرى هذا الأسلوب الناعم دائما حينما يريد أن يملئ على رغبة من رغباته . لذلك سكنت ولم أسأله حتي عن اسم ذلك الخطيب ، ولو سألته لكان جوابه نظرة نسر ثم سكوت طويل .

ستم هذه المقابلة كما قرر أبي في الساعة السابعة من مساء الخميس القادم بعد أربعة أيام . سأقدم له كسلة بائرة ، وفي يدي كأس من الشراب ، هكذا تقضى تقاليد الأسرة ،

ويجب علينا كليناً أن يحكم كل منا على رفيق حياته بنظرة واحدة ، نظرة تحيط بالماضي والحاضر والمستقبل ، وتهتك الحجب وتنفذ إلى مستودع الأسرار ، نظرة واحدة كأنها من نظرات الأنبياء ! أليس الرق المكشوف يا صديقي خيراً من هذا الرق المكسور بثوب مخضب من دم الحرية ، المزركش بوشى لماع من ضلال العرف والعادات ؟؟ ألم يكن خيراً لنا أن نباع ونشترى في سوق العبيد سعداء في قناعتهم بالذل ، ناعمين في رضاهم بالمنزل الدون ، فرحين باللقمة السائفة والكلمة الطيبة ، والأمل الدائم في أن يكون أسيادنا الجدد خيراً من أسيادنا القدماء ، ألم يكن هذا خيراً لنا من أن نعرف الحرية . ونذوق طعمها ، ثم نساق في ظلها إلى وكر مجهول لا ندرى أنقر فيه على ريش ناعم ، أم نشوى على أسياخ من تحتها نار ، ونطالب باسمها أن نسعد زوجاً من قلوبنا التبعة ، وأن نهذب أولاداً من عقولنا المسممة بوباء الشقاء ، وأن نعمر بيتنا من أرواحنا المعذبة ، بالهناء والنعم ؟؟

قلت لى مرات إنك سوف تعيش حراً لا تزوج ،

وأنا أعلم عن آرائك في هذا الأضراب ما لا يدع لى أملا
في أن أصل حياتى بحياتك . كأن القدر يا صديقى كان
ينطق من خلال شفئك بهذا الحكم القاسى على مستقبلى
وعواطفى وشبابى . وكأنما كان رضائى بهذا الحكم نوعاً من
حلاوة الروح تحت طعنة السكين . لماذا لم أحاول إقناعك
قبل أن ينفذ السهم ؟ لا أدرى ، فقد كان كل ما يدور بخيالى
أنا سنظل فى فردوسنا الهادى ، مادمنّا أطلعنا الله ، وعصينا
الشيطان وعفنا الثمر المحرم .

كم كانت لذيذة تلك الساعات القلائل التى قضيناها
على شط البحيرة معا نناجى هوأنا البرىء فى غفلة الرقباء ،
وكم كانت مسعدة تلك الرسائل الكثيرة التى تبادلناها على
البعد هدايا قلب إلى قلب ، وتحايا روح إلى روح ! وكم
كانت معزّية تلك الامانى الغوامض الحسان فى أن نحيا دائماً
ليشرب كلانا فرح الحياة من عيني أخيه ! . . .

وأأسفاه يا صديقى . . . قضى الله أن تضل القافلة فى
منتصف الطريق . فأنت مضرب عن الزواج بعناد وإصرار ،

وأنا أمام أبي يجب أن أتزوج ، وأمام العرف يجب أن أخلص
لزوجي ، وأمام ديني يجب أن لا أفكر في أحد سواه ،
وأمام قلبي وضميري لا أدري ولا أتصور كيف أصبر على
العيش في حماية رجل سواك .

لا بد أن تخضع كل هذه القوى التي تتجاذب كيأني
لقوة منها واحدة ، ولو أن الأمر لي أو لك لجعلنا السيطرة
للقلب والعواطف . لكن تأمل : هناك سواك وسواي أبي
وأنا أحبه وأطيعه ، وهناك شرفي وأنا أجله وأصونه ، وهناك
ربي وأنا أعبده وأخشاه . ولو كان العرف وحده هو الذي
يحول بيني وبينك لجعلناه سخرية ، ومثلنا به تمثيلا . . .
أنا حائرة يا صديقي لا أدري ما أقول .

إذا شئت أن تحتفظ برسائلي ذكرى لغرامنا المهور
فهي لك ، أنا لا أخشي عليها شيئا بين يديك ، وإن رأيت
أن لا فائدة لها عندك فردها إلي . . . بنفسى أن أقول لك
اذكرني ، لكنني أعلم أنك أرق وأنبل من أن تنسيك إياي
الليالي والأيام .

وداعاً . . . من كل قلبي الكسير وداعاً يا شفيق ! «

« رسمية »

فرغت رسمية من قراءة هذه الرسالة واستعادت في
ذهنها رد شفيق :

« أنت فتاة في كف عفريت ، لا تصبرين على طعام
واحد ، وما دمت تتوهمين لرسالتك قيمة لا أصل لها ،
فتعالى خذها غداً في الساعة الثالثة بعد الظهر بالملتقى المعهود
« »

فانفجر قلبها ذلاً وخجلاً ، وودت لو انشقت لها الأرض
فابتلعها واختفت عن الوجود . ثم آوت إلى مقعد طويل
فتمدت عليه هاتفة بنفسها :

« ما أتعس المرأة ! يوم تسلم قلبها تسلمه إلى وحش ،
مريم تحمض رأسها يستنسر على هامتها الذباب ! ! »
وقدرت في نفسها عندئذ فقط أى خطر يهددها من
بقاء رسائلها في يد هذا الوغد الدنيء ! !

في الساعة الثالثة من مساء الخميس التالي كان مقصف
حديقة الحيوانات عامراً بخدمة ، وشخصين يجلسان تحت
خيمة منفردة في ركن من أركانه القصية ، فتى وفتاة ، تظلالهما
من وقدة الشمس غصونها المورقة المزدهرة . وتفصلهما
مائدة مدت عليها كؤوس الشاي وأكواب اللبن وأطباق
الحلوى وتحجبهما عن أنظار الخدم والعمال شجيرات الحمية .
كانت البحيرة أمامهما يسبح على صفحتها المطمئنة سرب من
البط الملون يغطس في الماء حتى لا يظهر له أثر ، ثم يطفو على
السطح في مرح ونشاط . ويمتد شطها الآخر كاسيا بشجره
الأخضر المتصل ، وزهره المختلف الألوان . وكان المنظر
كله يغري أشد الألسنة ثرثرة بالهدوء والسكون والتفكير .
لكن فتينا كانا غارقين في حديث أقرب إلي أحاديث
الساسة منه إلى مناجيات العشاق . فأما الفتاة فقد ظال أمامها
الطعام والشراب لم تمسسها يدها . وأما التي فكان أحيانا
يأكل ويشرب ، وأحيانا يفتت الخبز بين أصابعه ويرمي
بفتاته إلى الماء ، ويتبع بعينييه سرب البط وهو يختصم عليه ،

وهو بين هذا وذاك متحدث أو سامع .

قالت رسمية :

— ألا يكفيك أن تأخذ رسائلك ثمنا لرسائلي ؟

قال شفيق وابتنسامة التهمكم لا تفارق شفتيه :

— رسائلي ؟ مزقيها إذا شئت ، إنها لا تهمني بشيء .

— إذن ماذا تريد ؟

— لا شيء في الواقع . نمن زهيد لمثل هذا الأثر الغالي

— كن صريحا وقل لي ماذا تريد ؟

— أريد عن كل هذه الرسائل التي تملأ هذه الحقيقة

قبلة واحدة !

لو طلب إليها شفيق هذه القبلة قبل يومين لأجابته

إليها ، ومدت له يدها بشوق ووجد واندفاع . أما اليوم

فع أي خزي وعار طافت في رأسها هذه الكلمة ؟ لكن

الرسائل ! يجب أن تفتديها بأى ثمن ، وهو بالألمس نال من

يدها ألف قبلة ، فلتزد واحدة ، إنها لن تحرق يدها ، ولن

تنقش عليها وشما يبقى عليها سبة الحياة ! ثم شيء آخر.. لا بأس
أن تشعر بوقع شفّتيه على جسمها لآخر مرة . قبله واحدة
تتخلص فيها من غرامها المنكود ، ثم تنساه . . . تنساه إلى
الأبد !!

وبعد تردد لم يطل قدمت له يدها ساكتة فأمسك
بنصرها يرود ، وأخذ ينظر بشغف إلى خاتم فيه .
— حقا إن فصّه بديع ، لا بد أن يكون كلّفك
ثمنا غاليا :

عقدت جيذنها بغيظ ، وتشتت يدها من يده بقوة ،
وصاحت به غاضبة :

— ألهذا أعطيتك يدي ؟

— لأي شيء إذن ؟

— لكي تقبض ثمن وحشيتك ، وأدفع أنا ثمن الضعف
والطيش والتهور .

ضحك شفيق ضحكة عالية ثم قال :

— للقبلة إذن ؟ لا .. لا .. ياسيدي لست أريدها من

يدك . رسائك أغلى من هذا بكثير . أنت شديدة التواضع
دعيني أقطفها من شفتيك !

ثار جنون رسمية فأخذت تسب وتلعن ولكن في
صوت خفيض ، وبعين شكرى بالدموع . ثم طفقت ترجو
وتتوسل وتذكره بأيامه الأولى أيام أن كان رجلاً . لكن
شفيق كان كأبى الهول تتكسر لعناتها وتوسلاتها على
صمته الآخرس ، وابتسامته التي لا تذبل ولا تتغير ، ويده
اللاهية بفتات الخبز ترميه بانتظام إلى صفحة الماء .

— أصخرة أنت ؟

— بل أشد قسوة !

— يا وحش !

— كلنا كذلك ياسيدي إذا واثنا الظروف !

— أليست فيك بقية من شرف ؟

— تركتها بالمنزل فغفوا ! معذرة ياسيدي أنا على

موعد ، فهلا تريدن أن تتسلمي الرسائل ؟

أخيراً أيقنت رسمية أنها تضرب في حديد بارد ،

ووجدت أن لا مناص من أن تدفع هذا الثمن الأثيم .
فأغمضت عينيها ومدت وجهها وقالت هات الرسائل !

— اقتربي قليلا . فما أظنك تريدين الفضيحة ! فاقتربت
إليه مقسمة في نفسها ألا تعود إلى هذا المكان الدنس الذي
شهد خزيها وفضيحتها على هذه الصورة المزرية ، ثم انتظرت
فم شفيق الذي طالما أحست بلمسه الناعم الحار على ظهر
يدها ، انتظرت هذا الضاغط اللين ، وفي نفسها ثورة .
ليس شفيق من القبح بحيث صورته لنفسها بالألمس ؟ ثورة
أحست أنها ثورة غضب مشوب بلذة ! .

ولكن شفيق لم يتقدم ، ومرت لحظة ثم لحظات ...
ففتحت عينيها بقلق ، وصاحت به ألا تريد ؟
— هل تظنين قبلة من ثغرك تستحق هذا العناء كله ...
لقد كنت أهزأ بك يا حمقاء ؟

طعنة أخرى أشد من كل طعنة سواها أحست بها
المسكينة تصيبها في البقية الباقية من كبريائها الجريح . فقالت
وقلها يتمزق قهراً وأسى :

— اشكرك فاعطني الرسائل ..

— أية رسائل يا آنسة . هاهي الحقيبة فارغة ليس بها شيء . ألم تكتبي لي في ذيل كل رسالة « مزق خطابي بعد قراءته » ! لم أفعل شيئاً إلا اني أطعتك ؟ فهل تعدين هذا ذنباً ؟
انسمت حدقتها ، في رعب هائل ، وعرفت أنها امام نذل مسلح لن تنال منه وطراً ، فصاحت به في عاصفة يأس وقنوط :

— انشرها على الناس ، افضحني ، إفعل ما تشاء ، انت وحش ... انت دون ... سوف احتمل كل شيء إلا كلمة اخرى من لسانك الساقط : .. جرسون !

— افندم

— حسابك كام ؟

نظر الجرسون الى شفيق ثم وجه الخطاب اليه قائلاً .
— اربعتاشر قرش ياسعادة البيه ؟

فرمت على المائدة ريالاً ، فتردد الخادم في أخذه ، ونظر إلى شفيق مرة أخرى كأنه يستنجد به من هذا

الموقف الغريب . فلم يتحرك شفيق ، وقال وهو يرمي
الفتات مبتسما .

— خد منها يا محمد : مفيش تكليف !! —

ووهبته رسمية قرشين ثم صرفته ، وأخذت الأربعة
الباقية ، وبمتهى قوتها قذفت بها وجهه ، ولولا أن زاغ
منها لا صابته بجرح ، ثم شفعها بحزمة من رسائله كانت في
حقيبتها وانصرفت عنه وودمها يغلي في عروقها غليان انفجار...

وفي الساعة السابعة من نفس هذا المساء . كانت رسمية
تستعد لتقابل خطيبها بهيكل فتاة لا قلب لها ولا كرامة
ولا شعور . . من يدري لعله يستطيع أن يأخذ لها من قلبه
فيحي الموات من قلبها القليل ، لعله يستطيع أن ينسيها غرامها
المجرم وحبها التمس ، لقد جربت اختيارها ، فلتجرب
كيف يختار لها القضاء .

وحينما أزفت الساعة دعيت رسمية ، فقامت بسيقان
متخاذلة ، وحملت الكأس وسارت في سبيلها كأنها قربان
يتقدم إلى مذبح . وحينما ولجت الباب وجدت أمامها وجه

أبها يتسم لها تشجيعاً، ورأت هذا الخطيب المجهول يوليها
ظهره وكان يرتدى معطفاً بديع التفصيل فحدثت نفسها
وهي ترخي أجفانها جياء ورعباً :

ما أشبه الليلة بالبارحة ؟ كلاهما طويل القامة عريض
الألواح ! . ياله من فأل سيء ! لكنها غريقة ، وما خوف
الغريق من البلل ؟

وتقدمت بالكأس حتى أصبحت أمام خطيبها وفتحت
عينها بتؤدة لترى هذا الوحش الجديد . فاذا هي . . . وجهها
لوجه . . . أمام . . . شفيق !



نائب ديروط

دخل النائب المحترم ج. ت. حرم مجلس النواب لأول مرة وهو يرتعش ، وعيناه زائغتان هنا وهناك ، كشخص أول ما عرف التقاضى سيق فى الأغلال إلى محكمة الجنايات ! كان راكبا عربة أتت به من العتبة الخضراء إلى مجلس النواب فدفعت للسائق عشرة قروش ، وكانت هذه القيمة قيمة سخية جدا بالنسبة للمسافة ، لأن خيل العربية كانت هزيلة جدا وبطيئة جدا ولا تمشى خطوة إلا على وابل من ضربات السوط .

وأدهش سقاء الأجراب السائق . فنظر نظرة إلى الراكب ثم إلى القطعة القضية وبدل أن يشكر ويمضى إلى حاله ، صاح بالنائب المحترم محتجا على تفاهة الأجر ، واحترم النائب المحترم المحيط والظروف والحرس العسكرى الواقف

يباب البرلمان فسد فم الرجل ببقية الريال ...
إن سائقي عربات الخيل في القاهرة كلهم من علماء النفس
ويدركون من نظرة واحدة كل أسرار وخبايا « الزبون »
ولديهم تسعيرة مضاعفة للعشاق ولأعيان الريف ، ومنذ سنة
١٩٣٠ ضموا إلى أصحاب هذه التسعيرة طائفة جديدة من
أعضاء البرلمان !

وأعضاء البرلمان المصري سنة ١٩٣٠ جمعوا كما كان
يعرف كل الناس يومئذ من الشارع ومن الزريبة ومن كل
مكان ، لأن الذين عملوا هذا البرلمان كانوا مستعجلين ،
ويمخشون أن يطلع عليهم ضوء النهار ! . . . ولم يكن عندهم
أشخاص كثيرون يختارون من بينهم أو يفضلون فيهم هذا
على ذاك . . . لأن جمهور الشعب كان مضرباً عن الانتخاب
وعن دخول هذا البرلمان .

وعلى كل حال فإن النائب المحترم ج. ت. لم يكن من
طراز سنة ٣٠ نفسها بين أعضاء البرلمان ، ولكن من طراز
سنة ١٩٣٢ ، لأنه انتخب عن دائرة ديروط عقب وفاة نائبها

السابق وعلى نفس النظام الذى جعل انتخاب النواب كأنه تعيين .

نظر النائب المحترم إلى الجنود الواقفين بالباب نظرة كلها رهبة وإجلال ، ثم حار لحظة أيتقدم شجاعا فيقتحم هذا الحاجز من الكسى الحكومية السوداء ، أم يتأخر جباناً فيفوته الموعد المحدود ليقسم بين الطاعة للدستور كما قيل له من أحد زملائه النواب .

وأخيراً تحكك بجندى منهم ، فأوسع له الجندى مكاناً بالباب وهو ينظر إليه مرتاباً أيمسكه على هون ، أم يتركه يمر لعله محسوب على أحد النواب ؟!

وتركه يمر فى النهاية بلا كلام ، فر النائب المحترم باسمه وهو يحيى العسكرى بمنتهى الخضوع وفى نفسه أن الجندى لا بد عارف أنه النائب الجديد

ووقف على الباب الكبير لمجلس النواب يبحث عن بواب ، فلم يجد إلا سعاة وحجاباً ظنهم فى ملابسهم الزرقاء المزركشة من زملائه النواب

وأخذ يحيتهم واحدا واحدا وهم يردون له التحية
بأطراف الأصابع !

واستحقر افنديا ممن رآهم يدخلون الباب ، وقال في
نفسه لا بد أن هذا خادم ، ولكن اتضح له فيما بعد أن هذا
الافندي هو وكيل المجلس ، وسأله مترددا إن كان يعرف
موظفا في المجلس يسمى بشاره افندي فلتاءوس . . .

وظل وكيل المجلس يبحث في ذاكرته عن بشاره افندي
فلتاءوس حتى وجده في النهاية في ركن مظلم ، في حجرة
صغيرة في قلم الترجمة ، في الدرجة السابعة بمرتب سبعة جنيهات
بما فيها الدمغة والمعاش .

وسأله وكيل المجلس عما يريد من بشاره أفندي
فلتاءوس فأخبره أنه نائب جديد وأنه يريد الاتصال ببشاره
أفندي ليحمل له رسالة من قريب له في ديروط .

ونظر له وكيل المجلس من فرعه إلى قدمه على هذا الضوء
الجديد ، فلم يعجبه منه لازيت العمامة ولا اضطراب القفطان
المشوش تحت المعطف البلدي الحقيق ، ولا الحذاء الذي تخبّ

فيه قدمه ولا اللحية التي لا عهد لها بمقصد الخلاق ، ولكنه
مع كل هذا عده من أنظف النواب الموجودين بالمجلس ،
واستبشر بوجوده خيرا لأنه على حاله هذا سيكون مفخرة
للحكومة تفاخر بها الشعب المصري حينما يخرجها بتعداد
نقائص الحالة التبعة التي كان عليها معظم النواب . . .
وبكل اهتمام أمر أحد الحجاب أن يرشد حضرة النائب
الجديد إلى مكتب بشاره افندى فلتاءوس .

كان بشاره افندى فلتاءوس طول الليلة الماضية ساهرا
مع بنت في أحد بارات عماد الدين ، وكان النوم يغالبه على
أجفانه ساعة الأصيل ، وبقية من خمار الزجاجة التي أفرغها
في جوفه ما زال يلف في رأسه ويدور .

وكان عليه أن يترجم في صباح هذا اليوم خطبة لأحد
النواب ، وكانت الخطبة ثقيلة وسمجة ، فتركها على المكتب
وقال لنفسه ان يوما من يوم قريب .

لذلك لما أعلنه الحاجب بأن نائبا من النواب يريد أن
يراه دارت مقلتاد في وجهه واضطرب ، وظن أن الباشا النائب

صاحب الخطبة مقبل عليه يطالبها منه ، فزرر الجاكته ، ولبس
طربوشه على عجل ، وبحث عن الخطبة في درج مكتبه حتى
وجدها فوضعتها أمامه وأمسك بكراسة من الورق الأبيض
وكتب فيها عدة كلمات انجائزية ثم قطع منها بضعة أوراق
ونثرها مقلوبة أمامه كالغارق إلى رأسه في عمل خطير . . .
ودخل النائب المحترم ، وأقبل كلاهما على الآخر
كالأسد والثور بعد أن وضع بينهما دمنة فتيلة الخراب ،
النائب مشفق حذر ، والكاتب يتنفس تنفس المرتاح ولكنه
خائف أن يكون وراء هذا النائب الجديد عمل جديد ، أو
نذير جديد .

وأخذ النائب المحترم بشاره أفندى إلى ركن ، ثم وضع
يده في فتحة القفطان فأخرج منها مظروفاً ثم سأله قبل أن
يسلمه إليه :

— حضرتك بشاره أفندى فلتاءوس فأجابه :

— أيوه ياسعادة اليه

فقال حضرة النائب :

« معى لحضرتك جواب توصية من جبريل أفندى
فانوس ، صراف بلدنا . . . أنا من ديروط . ! »
قال بشاره أفندى :

« آه . . . جبريل أفندى فانوس ، دا أخويا وحيي
الروح بالروح . . . حضرتك النائب الجديد بتاعنا ؟ »
وأزيم حمل ثقيل عن عاتق النائب المحترم وظهرت على
وجهه وهو يجيبه بالايجاب بواذر الغبطة والسرور ، ثم أسلمه
الرسالة وقال له إن جبريل أفندي يسلم عليك كثيرا ويوصيك
بى ويرجوك أن تأخذ بالاك منى دائما ! !

وأمسك بشارة أفندى بالرسالة وهو يتمنى لو رآته
فردوس التي كانت ساهرة معه بالأمس فى هذه اللحظة ،
مخاطبا بهذا الأسلوب من أحد أعضاء مجلس النواب !
وقرأ الرسالة وقدم مقعداً للنائب المحترم ، ثم طلب له
فنجالا من القهوة ، والنائب المحترم سعيد تكاد السعادة تثب
من عيذه لهذه الحفاوة بشخصه الضعيف . . . وبعد أن شرب
القهوة أخرج ساعة من جيبه فى حجم المنبه الصغير مفضاة

بغطاء أصفر شفاف ، ثم ظل ينظر فيها مرة وفي وجهه بشاره
افندى مرة أخرى ...

ولحظ بشارة افندى أنه لا يعرف كيف يقرأها فسأله
إن كان لديه ميعاد ؟

قال : ليس عندي إلا حلف اليمين !

قال بشارة افندى ضاحكا : لقد بدأت الجلسة منذ ساعة
وقد فات دور اليمين وعلى كل حال فسألتوسط لك عند
الرئيس في العفو عن هذا التأخير . !

وقام ليتوسط له لدى الرئيس تاركا إياه يشكر الله على
أن هيا له ظهيرا وحاميا في هذا الجو الغريب . وقابل بشارة
افندى فلتاؤوس الحاجب وراء الباب فقال له :

« اعمل معروف يا محمد أباه خذ بالك من حضرة النائب
وهو خارج من البرلمان أحسن يدهسه الترمواي . ! »

إن هذا نموذج مصغر ولكنه حقيقى من نواب البرلمان
المصرى سنة ١٩٣٠ ..

باب الختم

حينما تقول المرأة إنها تريد أن تنسى ، يكون قلبها طافحا
بذكرى من تريد أن تنساه . . .

نظرتُ إلى الوجه المائل أمامى فى المرأة ، نظرة يأس
وحيرة وإلحاد . . . إلى الرأس الأصلع ، وإلى القود الذى
وخطه الشيب ، وإلى العين التى بلا أهداب ، وإلى السطور
القييحة الخط التى كتبها الحن والتجارب المرة على زوايا
الفم وعلى صفحة الجبين . . .

ثم هبطتُ إلى ماتحت الرأس أبحث عن مميزات
ظاهرة ، فى القوام أو الهندام ، فلم أجد شيئا يستثير صبوة
فتاة فى سن العشرين ، لوجهها جمال الأمانى الحلوة ، ولجسمها
نضرة ورق التوت الجديد ! . . .

ربما تكون المرأة من صنف رديء ، ربما تكون
المسألة كلها ضلّالاً من خداع الأنوار . . . كذلك قالت
لى نفسى مواسية ، ولكنى لم أكن مغروراً ، فطردت
هذه التعلّلات ، وأقنعت نفسى أن الذى أغرى هذه الفتاة
باصطيادى من الشارع ، إنما هو لحظة فى وجهى — لم أفطن
لها — من لمحات الرجولة ، وجاذبية الجنس ، وشهامة الرجال .
لقد ترددت عشر مرّات قبل أن أجيب على نداءات
عينها الصامّة المتكرّرة ، ترددت لأنى كنت أظنها دعوات
غرامية موجهة إلى أشخاص آخرين .

وهأنذا فى غرفة نومها ، خالعا سترتى بلا تكلف ،
بين المرأة التى تهكم من وجهى بلا رحمة ، وبين سرير من
خشب الجوز ، أغشّيته كلها فى مثل بياض اللبن ، وكأنها
خارجة تواء من يد اللكواء . . . ومعي فى الغرفة مائدة
صغيرة حولها مقعدان ، جلستُ على أحدهما ، وقد صُفّت
على المائدة عدة صحاف ملأى ببضعة ألوان من الطعام
المجفف والمحفوظ ، وزجاجة وسكى وكأسان ، وعلبة سجائر ،

أى كل الأشياء التى طلبت منى شراءها ونحن قادمان ،
وحدوة حصان معلقة على الحائط ، وسجادة رخيصة ولكنها
بالوانها الحية تشبه لوحة فنان . . .

وكل شىء من حولى يتحدث ببساطة عن ذوق
امرأة ، امرأة تتاجر بعرضها وتعيش فى وسط أقل من
وسطها الحقيقى ، كالأقحوانة النابتة على التل ، المدينة بكل
قطرة من عصاريتها لسحابة مختلفة من سحب السماء . . .

لقد أصرت على نوع من الويسكى الاسكتلندى
الرخيص وعلى سجائر أجنبية مرقومة برقم ٣٣٣ ، بينما
كنت أنا ككل رجل تفتح أمامه الجنة فجأة أعرض
عليها بالخاح أغلى أنواع الويسكى الفاخر ، وعلبة من سجائر
أمير الصعيد ، فتطرد كل اقتراحاتى بحركة عصبية من يدها
وقدمها ، وسمة من سمات الضجر والتأفف تشيع فى وجهها ،
فتردنى عن معصيتها أذلّ من عبد رقيق . . .

وألقت نفسها فى السيارة علىّ كأنها جثة ، تبحث
بين ذراعىّ عن قبس من الحياة ، كأنها تعرفنى منذ عشرة أعوام

وسبقتها إلى الغرفة عندما خلعت ثوبها ومعطفها
وعادت ، مظهرة من الروائح العطرية ، اتسقت بأريجها
المخدر مع روح المكان ، ومع قميصها الحريري الذي حجب
من جسمها المخروط بمنتهى العناية ما يحجب الضباب الرقيق .
وحيتني بأصبعين ، فرددت عليها بخمسة ، ثم نادى
جارتها « أتيسة » فقالت لها ... أنا لست هنا الليلة .
مفهوم ؟ .. لا أريد زواراً ، لا أريد أحداً بالمرّة ...
وكل شيء في كيانها كان يتحدث عن شبه عاصفة مكتومة ،
والبنت الجارية نفسها ، كان بين شفيتها كلام تريد أن تقوله ،
أو لعله اعتراض ، أو استيضاح ، ولكن هيئة سيدتها
أوقفت الألفاظ على شفيتها فخرجت من الغرفة صامتة
وأخذت وراءها الباب ...

وكدت أحس أنني في قصص .. أنني سجين مع
مجنون ... ولكن بغير انتظار ولا مقدمات ، إلا نظرة
طويلة خيل لي لأول وهلة أنها نظرة احتقار — وكل شيء
كان يدعوني إلى سوء الظن — اندفعت مضيفتي إلى ،

فزرعت نفسها زرعا على ركبتي بمنتهى السهولة ، ثم مزجت
كأسين من الويسكى والصودا ، فأعطتني إحداهما ، وشربت
الأخرى فى جرعة ، ثم وضعت الكأسين حيث كانتا ،
وأزاحت يدها ما تبعثر على وجهها من شعرها المنشور ، ثم
عانقتنى فى شبه غيبوبة ، ووضعت قبلة مسكرة طويلة على
الفم الذى كان آخر عهده بالقبلات سنة ١٩٢٤ أى منذ ثمانى
سنوات ..

إننى رجل فى النهاية ، وهى امرأة ... ولكل فولة
كيال ! . هذا ما قلته لنفسى على ألحان البلبل الذى كان يعنى
فى فؤادى أغنية الهوى والشباب ، ساخرا معى من كل
وساوس المرأة .. ولكن وجهها المكمود .. شفتاها
المرتعثتان .. عيناها المغلقتان على حلم .. كل هذا لم يكن
طبيعيا أبداً ، ويشبه السحب القائمة تتجول فى السماء فى يوم عيد .
وشربت كأسها الثانية بلا تردد ، وسألتنى ألا أضع
لها فى الكأس الثالثة صودا ولا ماء ، وفتحت علبة السجائر
فأخذت منها لفافة وأعطتني أخرى ، وأخذت منها ورقة

« كوبون » فنظرت إليها نظرة ملأت عينها بلمعان غريب ،
سرق من روحها نشوة كأسين ، ثم طوتها في يدها حتى
أصبحت كالكرة ، فرمت بها الأرض ، وشربت كأسا
واحدة من خالص الويسكى بحجم ثلاث كؤوس . . .

وعادت بعد قليل بعينها المتعبة إلى الورقة المنبوذة ، ثم
ذهبت إليها بخطوات مترددة ، فالتقطتها من الأرض كالذى
يلتقط تيمية ، فبسطتها ثم طوتها بعناية ، ثم نادى . . أنيسة . .
أنيسة . . إذا جاء حسن فأعطيه هذا الكوبون ، ولكن
قولى له لا يعود ، أنى لا أريد أن أراه ! . .

ولما سألتها من هو حسن ، عادت إلى مجلسها من
ركبتى ، فمدت لى خدها وقالت قبلى هنا ، ثم مدت خدها
الآخر ، وقالت . . وهنا . . ثم مدت فها . . ونسيت فى
قبلاتها حسنا ، والدنيا كلها ، وما كان ، وما يكون ، كنت
كالحمار المهمل الجائع المعجوز الذى وضع فجأة فى مخزن
القول . .

وبعد لحظات حالت بين وجهها ووجهى ، ثم حالت

بين جسمها وجسمي ، وانتصبت قائمة ، تتحسس
فمها يدها وتقول : أوه... إنك آلمتني... أنيسة ،
أنيسة... ونادت خادمها للمرة الثالثة ، ثم أخرجت من
حقيبة يدها علبة سجائر فضية ، فأعطتها لأنيسة ،
وقالت لها لما يجيء حسن ، أعطيه هذه العلبة ، قولي له إنها
هدية عيد ميلاده من « مرجريت » ، وذهبت وفتحت
النافذة ، ثم عادت تنظر إلى نظرة اللبؤة ، ثم اندفعت إلى
سريرها ، فاستلقت عليه متعبة ، وهي تضحك ضحك التمل
المخمور ، وكأنما كان يدغدغها روح شرير... ضحكات
عالية ومستمرة ، تساقطت لها من عينها دموع كبار ، وإذا
الضحك يستحيل إلى نسيج... بكاء ثكلى فتمدت في يوم
واحد عدة أولاد .

وحاولت أن أسترضيها فصرخت بي... دعني...
دعني يا حيوان .

وفي الواقع شعرت في قرارة نفسي أنني حيوان ،
ولكني حيوان يحس ويرني ويفار من ذكرى حسن...

من ذكرى تلميذ في الثالثة والعشرين من عمره ، من
جامعى الكوبونات ، هكذا قالت لى وعيناها غرقى فى
الدموع ..

هو غرامها الأول ، وتحت قبلاته كان قلبها يذوب
كالشمع ، وذراعاها ترتخيان كالجمال ، ويشرق فى ظلمات
حياتها التعسة كوكب دري له إشراق الشمس ، وطراوة
القمر ..

كانت تجمع المال ببيع قبلاتها ، وبعثة عرضها كغلائل
الزهر الذابل تحت مواطىء الأقدام ، ونذرها نفسها كل
ليلة لأحضان عدة رجال ، ويأتى هو فيأخذ من خزانها
ما يشاء ، لينفق على عشيقات أخريات ، ويعود إليها فى
منتصف الليل ليكث معها ساعة يضربها فيها ويلعنها ويطلبها
بالمزيد .

واعترمت أن تنسى ، وأن تعاقب نفسها على غرام
لم ينلها منه غير الذل والعذاب والنكال ، نخرجت إلى الشارع
فى هذه الليلة نائرة على نفسها ، وعلى الدنيا ، باحثة عن

كفَّارة ، ناذرة نفسها لأقبح رجل يصادفها في الطريق .
أقبح رجل ! ..

هذا ما قالته لي بالذات وبنفس الألفاظ ، مفرقة في
بركة من دموعها كل الجمرات المشتعلة بغير أوانها في قلب
رجل مجروح الكبرياء .

كنت أنا زنزانة السجن لروحها الشقية ، كنت أنا
آلة التعذيب ، وفشلت في كل شيء حتى في أن أكون
ممسحة نسيان ! ..

حينما أسلمتني نفسها بلا قيد ولا شرط ، كانت تلقى
نفسها منتحرة إلى بيت التماسح . وفي الساعة الأولى حينما
أُلفت بجثتها بين ذراعيّ ، وظننت أنها تنتصر على نفسها
أتم الانتصار ، كانت تفكر في الويسكي الاسكتلندي
الرخيص الذي شربته مع حسن ، وسجائر رقم ٣٣٣ ، التي
دخنها مع حسن ، والكوبونات التي كان يجمعها حسن . . .
وفي طول الليل كانت من حيث لا تشعر ترى حسن من
خلال عيونها المقفولة . وذكريات الليلة كلها كانت صلوات

ترفعها إلى روح حسن ... حسن خيالي جديد ، تقمص لها
جسمي بضع ساعات ، حسن مهذب ، لا يضرب ولا يشتم
ولا يقتصب منها ثمن العرض والحياة ..

وبين ضحكاتها الأولى ودموعها الأخرى كانت
نواقيس غرامها القديم تدق في قلبها مبتدئة بصوت خافت
ضئيل ، غلبه العزم على النسيان والبحث عن آلة التعذيب ...
ثم تعالى الصوت انخافت الضئيل قليلا قليلا ، وتعالى
هى بصوت قبلاتها المزيفة قليلا قليلا ، تحاول أن تحمى
نفسها من هذا النذير المقبل عليها ببطء الليل واطراده في
ساعة الغروب .

ولكن قبلاتها وأحضانها ومحاولاتها المصطنعة كلها
عجزت في النهاية أن تسامى نذير ضعفها القديم ، فوقفت
لاهثة في منتصف الطريق لهاث السكلاب المجهودة ، ثم
انفجرت في عيناها وشفتيها ينبوعا من الدمع والأنين ...
وظلت دقائق النواقيس تعلو في روحها وتعلو حتى
امتلاّت روحها برنين الأجراس ...

رنين أجراس وهمية ، تجمع كله في النهاية في رنين
جرس حقيقى ملأ أرجاء البيت .. هو جرس الباب ..
يدق دقات متقطعة على نسق مخصوص ...

زائر بالباب ، انتصبت قائمة على لمسات يده لزر
الجرس ، المرأة التى كانت ملقاة على بطنها فى السرير تبكى
وتنتحب ، وتمزق بأسنانها أغطية السرير .

انتصبت قائمة على قدميها ، وقد غاضت فى عينيها
الدموع ، وأخذ مكانها دعر الحيوان الطريد ، فوضعت
سترى على كتفى وهى تتوسل إلى ... أرجوك أرجوك ..
هذا حسن قد أقبل ! .. أنيسة .. أنيسة ... خذ كل
شئ دخلت به ، واذهب ... خذ قرطى هذا ثمنا لما ضاع ...
إذهب .. إذهب ولا تدعه يراك .. أنيسة .. افتحى له
باب المطبخ ! ...

دخلت هذا العش من باب الأسياد وعلى الآن أن
أخرج من باب الخدم ...

دخلته كرجل وعلى الآن أن أخرج منه كحيوان ! .
دخلته لأقطف العسل وعلى أن أخرج منه مثخنا
بحبات الزناير .

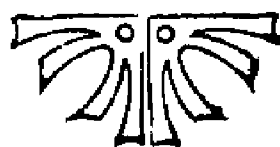
دخلته ممتلئاً بآمال شيخ في ليلة عرس وعلى أن أخرج
منه بقلب محطم ، وأمل ذاو ، وكبرياء مجروح . . .
لا أمل لي إذن في أن أكون رجلاً يعشق ويمشق ،
فلا كن إذن حيواناً ينتقم لنفسه بالموت ويموت . . .
هكذا قلت لنفسى وأنا أنظر إليها تارة وتارة أخرى إلى
حدوة الحصان المعلقة على الجدار . . .

إنها أداة صالحة للقتل . . . وبالأخص لما تهوي على
رءوس طرية ، رأس فتاة في العشرين وفتي في الثالثة
والعشرين . . . !

وبينها وبين حدوة الحصان ، وقعت عيني على المرأة
فرأيت الرأس الأصلع ، والفود الذى وخطه الشيب ، والعين
التي بلا أهداب ، فرأيت منظر أب ، أب شيخ فرغ من
الحياة وفرغت منه الحياة ، أب من واجبه أن يخلى ميدان

الهوى للبنين . . .

وخرجت من باب الخدم برأس منكس وكل
ما أخذته معي من أسلاب المعركة حدوة الحصان . .
أنها لم تستطع أن تجلب الخير لامرأة . . فلعل في
ذهابها ذهاب الأحران والأشجان ! .



شهادة لله . . . !

كنا نتحدث عن الحالة المعنوية لرجال البوليس في مصر بمناسبة العسكرى الذى رأى نارا تشب في أحد المنازل فأراد أن يخاطب المطافئ ، فمجز تمام العجز عن استعمال التليفون ، وأضاع فى ارتباكها عدة دقائق ذهب فيها المنزل المحترق طعاما للنيران .

واتصلت النوادر عن رجال البوليس ، وبعضها استحال إلى فكاهات مؤلفة ، الغرض منها تسليية السامرين
وذكرت لرفاقى حكاية عسكرى آخر ، سألته مرة عن فندق الناسيونال ، وكانت على مقربة من موقفه فى الطريق ، فخلق فى كالتيس ، ثم أدار بصره هنا وهناك ، ثم أخذ يردد بينه وبين نفسه بصوت الشارد المأخوذ « . . .
لوكاندة السسال . . لوكاندة السسال ! . . » ثم كأنما فتح

الله عليه فجأة فأمسك بإساعدي وقال لي ضاحكا ضحكة
الانتصار . . . « أيوه ياعم ، تمشى زى ما أنت ماشى كده ،
شويتين ، وبعدين تحوّد على اليمين ، وبعدين تدورع الشمال
تلاقى لوكاندة ال . . . ال . . . النسال !! »

وشكرته ولكنى لم أمض فى الطريق كما أشار ، وإنما
عدت على أعقابى ، ثم درت على الشمال ، ولففت على اليمين ..
تماما بعكس ما قال . . . وللصدفة الحسنة عثرت بفندق
الناسيونال !!

وأخيراً قال الأستاذ صبرى المحامى أن مصيبة الجهل
ليست شيئاً فى جانب المصائب الأخرى فى حياة أولئك
الرجال . . . وهى الكذب ، والادعاء ، والاستغلال القبيح
الاحمق لسلطان الوظيفة بلا ضابط ولا ضمير . حدث يوماً
وكنت وكيلاً لنيابة السيدة زينب ، وليس فى شكلى ولا فى
مظهرى ولله الحمد ما يفرض احترامى فرضاً على الناس . .
حدث أننى خرجت من عملى متأخراً ، وكنت متعباً جداً ،
وكان بيدي محضر تحقيق فى تهمة هتك عرض محوّل إلى من

ملاحظ البوليس ، وأهم شهود الأثبات فيها هو عسكري النقطة ، إن لم يكن هو الشاهد الهام الوحيد . . . لأن سائر شهود الأثبات كانوا بين تردد لما سمع ، أو مستتج من أقوال الرواة ، أو مدافع عن عرضه بالحق أو بالزور ، وبمضهم يتناقض مع بعض في رواية الموضوع .

وتركت ملف التحقيق بعد أن قرأت أوراقه مرتين وكان من عادتي في دراسة قضاياي ألا أقطع فيها برأى حتى أتركها ، أو قولوا أنساها يوما أو بعض يوم أو عدة أيام ، ثم أعود إليها بعد ذلك فأجد كثيرا مما استغلق على فيها قد أسلس لي قياده وتطامن لي فيه وجه الصواب . .

وخرجت من مقر عملي مبعث الشعر مشوش الثياب ، وكان طريق يخرق جاردن سيتي من حدها الغربي على شاطئ النيل ، وفي مثل الساعة المتأخرة التي خرجت فيها من مثل شهر أغسطس ، تكون كل الدكك الخشبية المبعثرة على إفريز هذا الطريق ، عامرة بأخلاق الناس من مختلف الأوساط ، يتسامرون على ضوء النهار الغارب ، وعلى

نسيم الليل المتقبل من ضفاف الجزيرة الغربية حاملاً معه إلى
القاهرة المختلفة في أظاها تحية النيل .

وسرت في طريقي وذهني كله محصور في الفلم الحى
الذى كان يعرض نفسه لعيني على طول الطريق ، أذناى
مرهفتان لأصوات باعة القصب واللبن والترمس وما تنائر
حولها من بذيء الفكاهات ، وعيناي مفتوحتان لكل شيء
ولكل وجه وكل حركة غزل تبدو بين عاشقين ، ولا أدري
كيف تزدحم هذه الأشياء التافهة فى الصفوف الأمامية
لحواسننا حتى فى أخرج المواقف وأدق الظروف . .
ورأيت وأنا سائر عسكري البوليس محتدا على بائع من
باعة القصب يزجره وينهره ويناديه بأقبح النعوت والألفاظ
وتبين لى بعد أن وقعت بجوار الجمع المحتشد لحظات أن
الحكاية كلها مساومة على شراء عود من القصب ، وقف فيها
الشرطى إلى جانب المشتري بلا مبرر ، وبلا معرفة بينهما ،
ولا قصد إلا التسلية بلذة الفصل والقضاء ، ولم يحترم البائع
رأى المشتري ولا حكم هذا المستشار الفضولي الذى يريد أن

يُعلي عليه إرادته إملاء ، وأصر على أن يبيع عود القصب بأربعة مليات ، بينما كان المشتري يقدر له ثلاثة فقط ، والعسكري يثور لفداحة هذا الثمن المرفوض . . .

وعز على العسكري أن يخالف أمره بهذه الصفة ، فما كاد يفرغ من تحية عسكرية أداها ، بمتهى النشاط لتلميذ من تلاميذ المدرسة الحربية ، كان يمر في هذه الناحية للمرة الثالثة منذ وقفت بين المتخاضعين ، وسرورا على ما يظهر لعثوره في النهاية على جندي يعرف الواجب ، رادا على تحيته للمرة الثالثة أيضا بإشارة لا معنى لها من أنامله العندمية وعصاه الخيزران . . . ما كاد يفرغ العسكري من تحية هذا الاله الصغير . حتى صفع بائع القصب عدة صفعات ترددت صدى في أبنية العمار الجديدة المجاورة ، ولعنات أو ضحكات على أفواه الحاضرين . . .

واحتج البائع على هذه الأهانة وعلى الضرب بلا مبرر احتج احتجاج الضعيف بالزفرات والدموع ، وردد أكثر من مرة الحكمة القائلة إن البائع والمشتري بينهما يفتح الله . .

ولكن الاحتجاج لم يغن عنه شيئا ، والدموع ذهبت
هباء ، والصفع باليد استحال إلى ركل بالحذاء العسكرى
الضخم الثقيل ، وتوالت الشتائم أقدر ما تكون ، وامتزجت
بالتهديد المستمر أن يعمل له ثلاث مخالفات ، مخالفة للسير
على اليسار ، ومخالفة للنداء على القصب بصوت عال في مثل
هذا الحى النبيل ، ومخالفة للإعتداء على ممثل الحكومة
والأمن والنظام ، وهذا كله إذا لم يبع عود القصب بثلاثة
لمبات !!

ودهشت لأن البائع المسكين كان واقفا بعربته في
أقصى اليمين ، ومن دون باعة القصب والترمس والقول كان
صوته أخفت الأصوات ، ولم يزد في رد الضربات المنهرة
على جسمه عن مجرد الاحتجاج والبكاء ، ورأيت كل الناس
يتدخلون ، من لم يتدخل منهم بالقول تدخل بالإشارة ،
وقلت في نفسي إنها حسنة أقدمها لهذا الرجل التمس ، حسنة
أكلل بها متاعب اليوم ، إذا أنا وقفت في صفه الأعزل
الضعيف . . .

وبالفعل بدأت بمنتهى اللطف أنبه المسكرى لخطئه في
هذا التصرف الشاذ، ولكن المسكرى بعد أن استوثق
بنظرة واحدة من مجموع شكلى ومنظرى أننى لست شيئاً
يُرهب أو يحسب له حساب، ترك بائع القصب وأمسك
بردائى من قماه وشد عليه بكل قوته حتى خيل لى أنى أكاد
أختنق، ثم صاح بى وهو يصفعنى بيده القوية، ويركلنى
بأحدى قدميه، والزبد يتدفق من فمه مع الألفاظ...

— وإنت شأنك ايه يا ابن الكلب تنحشر فى اللى
ما لكش فيه ؟ . . . سير قدامى يا لله ع القسم، والله لأوريك
يا ابن ستين فردة وطا قديم، وأعلمك ازاي تهجم على الحكام!!
وحاولت أن أستعطفه فلم أستطع، لأن ضغط الملابس
على حنجرتى لم يدع بها غير حيز ضيق يتسع بالقوة لمرور
الهواء...

وكنت أظن أنها طريقة طيبة للخلاص من بائع القصب
لأن موقفه منه لم يكن بالموقف الذى يستطيع الدفاع عنه
أمام الرؤساء مع هذا الجمع الهائل من الشهود، وعلمت نفسى

أنه سيفرج عني بعد أن تغيب عن الأنظار . . .
ولكن هذا كان وهما ، فإن شهوة الوحش للحصول
على فريسة ، كانت تطفئ على نفسه في هذه الساعة ، وقد
أغراه ما رأى من ضعفى وهوانى ، فاطلق ليد ورجله
ولسانه القذر العنان . . .

وظل يدفعنى أمامه دفعا ، حتى أشرفنا ، على قسم
السيدة زينب فسألنى متهمكا . . .

— حضرتك تعرف فى القانون ؟ .
وأردت أن أقول نعم ولكنى لم أستطع فقلتها برأسى
فى عدة هزات ، فعلق على جوابى وقال :

— داهيتك سودة . . . ما فاتتش عليك المادة ١١٧
و ١١٨ و ١١٩ والتعدى على الحاكم أثناء تأدية الوظيفة
يا ابن الفرطوس . . . سير قدامي سير ! .

وكنا فى هذه اللحظة أمام باب القسم وكان المعاون
بالصدفة واقفا بالباب ، فتوسلت له بنظرة استعطاف ،
فسألنى مشدوها من غرابة ما يرى :

— ايه الحكاية يا سمادة البيه ؟ ...

وشعرت أن يد العسكرى يخف ضغطها على عنقي ،
فقد فعلت فيه هذه الكلمة ما يفعل السحر ، ولم أصدق أنني
أقلت من برائته إلا حينما رأيته واقفا بجانبى فى هيئة تعظيم
عسكرى ، وإحدى يديه مرفوعة إلى جبينه والأخرى
بجواره حيث يجب أن تكون ...

وتنفست بحرية ، وملأت صدرى من الهواء ، وأجبت
المعاون بعد أن صاحته وأنا أمرن عنقى على الحركة
وحنجرتنى على الكلام :

— إسأل حضرتك العسكرى بتاعك جاررنى من
المنيل بالشكل دا ليه . . .

والثفت معاون إلى العسكرى الذى كان واقفا مكانه
كالصنم ووجهه كقشرة الليمون ، ثم ناداه غاضبا :
— ايه يا عسكرى الحكاية :

ولم يجب العسكرى لأن لسانه الثرثار لم يعد يدرى
ما يقول :

فرغده المعاون في صدره بسن يده وصاح به :
— إيه يا حمار . : . ما تنطق . . . جايب سعادة اليه
وكيل النيابة هنا ليه ؟ . . .

وأخيرا وجد العسكري لسانه فأجاب وصوته مرتعش
ومملوء بالعبرات ، وعيناه يطل منهما قلب مذعور متوسل
مستغيث . . .

— جاييه « شاهد » يا فندم ! !
وضحك ، لأنني لم أكن أستطيع أن أفعل شيئا
غير أن أضحك ، وقصصت على المعاون القصة ، ورجوته
أن يكتفي من عقابه بالزجر فقد كان منظره مؤلما وهو يسجد
على قدمي فيقبلها ويقول لي متوسلا :

— في عرضك ياسعادة اليه أنا ورايا عيال ! !
وذهبت إلى منزلي وأنا أفكر في تهمة هتك العرض
التي سأحقق فيها صباح الغد والتي يؤلف عسكري آخر من
عساكر البوليس أهم عنصر فيها من عناصر الأثبات . . .
ونمت وأنا أحلم في ضحايا رجال البوليس .

وفي الصباح عند ما بدأت عملي كنت قد نسيت كل شيء.....

ولكن عند ما وقف أمامي العسكري الشاهد في التهمة المنظورة ، عادت إلى ذهني قصة الأُمس بتفاصيلها . . .

لأن العسكري وهو شاهد الأُثبات الوحيد في التهمة كان هو بعينه بطل معركة الأُمس ، أي إنه الرجل الذي خلق لبائع القصب ثلاث مخالفات من لا شيء ، وكان على وشك أن يذهب بي إلى السجن بناء على ثلاث مواد لم أغاضبها في يوم من الأيام !

وسكت الاستاذ صبرى عند ما وصل إلى هذا الحد من قصته فسألناه عن مصير التهمة التي كان يحقق فيها فقال :

— لا شيء .. حفظت . وأحيل الشاهد إلى مجلس عسكري لا أدري ما تم فيه ..



الخامس في الدرس لثاني

- العمل الحر ؟ ما أيسر أن يتحدث الانسان عن هذا العمل الحر ، جالسا إلى مثل هذا المكتب الضخم في هذه الغرفة الجميلة متمتعاً مثلك بلقب سكرتير الوزير !
- إنى أنصحك لوجه الله .
- إننى أشكرك ولا أقبل النصيحة .
- أرجو ألا تندم .
- ليس ما يوجب الندم في حياة محام صغير .
- قد يكبر المجامى . . .
- وقد يظل صغيراً كألوف سواه ! .
- مع ذلك يبقى له استقلاله . .
- فى بيته نعم . أما فى المحكمة فبعض السادة كالعبيد !
- وشرفه ؟ . .

— أى شرف أن أقضى حياتى فى بسط الكف
أستجدى كلمة العطف من شفاه القضاة ؟ ومن هو القاضى
الذى أستجديه ؟ شخص مثلى وقف يوماً ما موقفى هذا حتى
فتح له باب الوزير . إبنى مثله من دم ولحم ، وأنا الخامس فى
الليسانس ، وقد يكون هو الأخير . . . لا ، لا ياسيدى ،
سأقف هنا حتى يفتح لى الباب !

— قد يطول عليك الانتظار .

— فى سبيل أن أصبح مساعداً فى النيابة فليطل ما يطول ..

— وأى مجد تراه فى أن تصبح كذلك ؟

— كل شىء يبدأ صغيراً ..

— وقد يظل كذلك . !

— أجل ولكن قد يصبح المساعد وكيلاً وقد يصبح

الوكيل قاضياً وخطوة واحدة بين القاضى والمستشار ، ثم
المجد ، العظمة ، أن أصبح قوة لها أثرها فى الوجود ! ثم من
يدري قد تسقط وزارة كما تسقط الوزارات . .

— فإذا بك وزير ! !

— ولم لا ؟ لا داعي للسخرية . . . أناس كثيرون
قد باتوا وأصبحوا وزراء ! .

— خسارة ! . . . ليس هنا مرآة لترى صورة من
نفسك الآن ..

— قد يكون الجمال كفاءة ، ولكن في غير حياة
القضاة ! .

— إنما أردت هذه الحمرة القائمة على أنفك المرتعش ! .

— هي سورة الأمل ..

— عينك تبرقان ! .

— بريق العزم والایمان ! .

— حاذر . . . في لحظة حماسة كهذه ، انكسرت

جرة السمن على رأس صاحبها يوما من الأيام . . . محمد
أفندى

— أفندم !

— لا تسرف في الأمل إن الأمل خداع ؛ كلمة أقولها

لك للمرة العاشرة ، واليوم بأكثر صراحة ، معالي الوزير

لا عمل له معك ، وهو يرفض بتاتا أن تراه أو يراك !
وتندى جبين محمد أفندي البدويهي — الخامس في
الليسانس — بقطرات من العرق ، جففها بكمه وانتظر قليلا
حتى استعاد أثارة من لونه الضائع ، ثم دس يده في جيبه
ونظر إلى سكرتير الوزير نظرة فيها نقمة لم يخفها ، وفيها حقد
لم يكتمه ، وفيها كذلك معنى من معاني الانتصار . . .

— مع ذلك فلن أياس .

— إنك عجيب !

— نحن في دنيا يدخل الشيطان فيها الجنة بقلنسوة راهب

— لكن أين وكيف يجدها الشيطان ؟

— قد يجدها في كلمة . . قد يجدها في رسالة ، أترى

معالي الوزير يرفض أن يتسلم مني هذه الرسالة من سمو
الأمير ؟

— عظيم جدا هذا بغير وجه المسألة ! .

ونظر السكرتير إلى محمد أفندي البدويهي نظرة ساخرة ،

أخطأ ترجمتها الأستاذ الشاب ، ثم قام من مجلسه ، فركم

لمحدثه نصف ركعة ، وسأله بمنتهى اللطف والخشوع أن
ينتظره حتى يعود ، ثم علق الرسالة على أربعة من أنامل يديه ،
كل ركن منها تحمله أنملة ، زيادة في الاجلال والاحترام ،
وتركه موقفا أن سهمه قد أصاب المقتل ، وأن الأقدار قد
ذلت له وتواضعت حتى لم يعد بيده وبين كرسي النائب
المساعد إلا لحظات لا تلبث أن تطويها وتطوى قلقها وحيرتها
وأحلامها عودة السكرتير ! .

كان البدويهي أفندي خامس الليسانس يتردد منذ
عشرة أيام كل يوم مرة على هذا السكرتير .

وكخامس في الليسانس ، كان يعتقد مخلصا أن هذه
الشهادة التي وقعها له وزير الحقانية — بذاته — هي كلمة
المرور السحرية في دنيا العز والمنى والآمال !

وكان رقم « الخمسة » عنده قد أصبح الرقم الأول في
علم الحساب ! .

وقد أحسن البدويهي أفندي ظنه أولا بسكرتير
الوزير ، وراض نفسه بشيء من الجهد على أن يعتقد أن وزير

«الحقانية قد يكون له في بعض الأحيان — كما كان يقول له
«السكرتير — عمل أخطر قليلا من النظر في مستقبل فرد
من الناس فتقبل الكلمة « فرداً من الناس » ببرود ،
واكتفى يومئذ بأن يلعب الحظ الذي وقف به على باب الوزير
المفلق ، في حين من هذه الأحيان !

ثم تضاعف هذا الاعتقاد في نفسه أخيراً تحت تأثير
الخيبة المتوالية ، والفشل الدائم في محاولة الاتصال بالوزير ،
فعاد يظن الظنون بالسكرتير ، ثم استحيات هذه الظنون
إلى آهام صريح !

إن السكرتير يصده صدا عن مقابلة الوزير . .

إن في نفس يعقوب حاجة . .

لعل له أخا من حملة الليسانس . .

أو لعله صديق . .

أو هي رشوة من شخص غني في مؤخرة الناجحين . .

ومهما يكن فهي مناورة يراد بها إقصاؤه حتى يفوز

واحد من هؤلاء بمطف الوزير !!

وما إن وصل من حديث نفسه إلى هذه الغاية حتى
استرجع كل ما يذكر من أحاديث السكرتير وحرركاته ،
وإشاراته ، وتصرفاته ، واضعاً لكل منها صورة تتفق
وما تخيل وخال !

واندفعت لغناته المكتومة تلاحق هذا السكرتير !
ثم أعلن عليه الحرب خفية ، فاتصل بزيد من الناس ، واتصل
زيد بعمره ، واتصل عمرو بخالد ، واستطاع خالد أن يحظى
له برسالة توصية من أحد أصحاب السمو الأمراء ...
وكان السكرتير بدوره يستثقل البدويهي أفندي بينه
وبين الله ، ويرى في كبر أنفه ، وفي ضيق عينيه ، وفي
ضخامة شفثيه ، وفي انسطاح جبينه ، وفي بروز فكك الأسفل
بروزاً أضاف إلى هندسة وجهه عنصراً من عناصر القبح
والتشويه ، ثم في زيارته المملة ، وفي إلحاحه السمج ، وفي
تلك الحركات البهلوانية ، التي كان الشاب يتكلفها ، بين قيام
وقعود ، وبين تحيات وبسمات ، كلما فتح باب الغرفة لزائر
قديم ، أو انفرج عن زائر جديد ... كان السكرتير يرى

فى كل هذا ظلا من ظلال الثقل والضة والساجة يضرب
العين أول ما تراه .

لكن قيود الوظيفة كانت تضطره أن يصابر الناس
كيفما كانت حظوظهم من تقاسيم الوجوه ، وكانت فلسفة
الحياة تملى عليه أن يلتمس لألحاح البدويهي أفندى معذرة
من رعونة صاحب الحاجة ، وكانت عواطفه النبيلة توارى
شعوره المجروح ، بالمطف على شاب لا يد له فى خلق نفسه
يقف حالما على أعتاب المستقبل المبهم ، غارقا فى عالم منضور
من البسات والأحلام .

وكذلك أشفق أن يردده عن باب الوزير بقسوة ،
فعود أذنه أن تسمع من صوته ما تكره ، وعود عينه أن
ترى فيه قطعة مضحكة من أثاث المكتب ، وترقق به
ما استطاع .

والويل للناس من الناس !

وفى انتظار عودة السكرتير ، جلس طربوش البدويهي
أفندى فى مقعد ، وجلس حذاء البدويهي أفندى فى مقعد ،

وجلس البدويهي أفندى ذاته - نصف راقدا - في مقعد ،
واحتلت يدها - على امتداد الذراعين - مقعدين آخرين ،
وشخص ما من زوار السكرتير ، أو لعله من زوار الوزير ،
خجول كما كان يبدو عليه ، ظل واقفا الى جوار أربعة زوار
آخرين ، جلسوا لأن البدويهي أفندى سمح لهم بنصيب من
مقاعد غرفة السكرتير .

أليس البدويهي أفندى قد لبس قلنسوة راهب ؟
أليس قد كسب المعركة ؟
أليس الآن ممثلا لأمير ؟

وعاد السكرتير في النهاية ، فوقف له الكل إلا خامس
الليسانس ، ومن حق الليسانس التي هو خامس الناجحين
فيها ، أن ينتقم لها ، وأن يبلغ في انتقامه من خصمه ما يريد ،
ووقف السكرتير أمام البدويهي أفندى مذهولا ، واشتمله
واشتمل المقاعد التي يشغلها هو وملحقاته بنظرة مكهربة ،
ثم شبك يديه على صدره ، وركع له للمرة الثانية نصف
ركعة ثم ناداه :

« يا صاحب المعالى يا وزير المستقبل ! إن صاحب المعالى
الوزير الحالى يرفض أن تراه أو يراك ! ويقول معاليه لمعاليك
إن شئت أن تكون مساعداً في النيابة فأنجح فى امتحان
المساعدين القادم ، ولتكن فيه الأول أو الخامس أو الأخير ! »
وقف البدوي هى أفندى لا تحمله ساقاه ، بعد أن جمع
أجزاءه المبعثرة على الكراسى ، أصفر اللون مبهوتا من رجة
الزلازال ، واستمر السكر تير :

« ويقول معاليه لمعاليك إنه توجد وظيفة خالية فى
مصلحة المجارى يمدك بالتزكية فيها لوزير الأشغال إن لم
تنجح فى الامتحان . . وتفضل اخرج يا صاحب المعالى ولا
ترنى وجهك بعد الآن ! »

— وما هذه الوظيفة يا سعادة البية ؟

— وظيفة كتابية لك فيها غرفة تستطيع أن تعيش فيها
سيدا كما تشاء ، وأن تدم فيها العمل الحر أو تمدحه لمن تشاء ،
ومرتبها ستة جنيهات . .

— لكن يا بيه . .

— لكنك خامس اليسانس .. أعرف ذلك وأعرف
أنك عظيم كنايليون ، لكن مع ذلك هذا وحده باب الجنة
المفتوح أمام الشيطان !!
— يا ييه ..

— لا ييه ولا تيه . عجل بتقديم طلبك إذا شئت ،
وأؤكد أنك ستشاء ، إن رابع اليسانس - ومعه هو الآخر
قلنسوة راهب - كان هنا بالأمس وسبقك إلى هناك !..



الحبيب

كان الشيطان يومئذ في عيد ، والرياح كلها في صفه ،
ووقفت يباني إشاعة لها وجه قرد ، وعلى معصمها جلاجل ،
وفوق كعوبها خلخال . . . ولما طردتها من النافذة جاءتنى
من الباب . . .

كنت أظأ بقدمي كل الأشاعات التي تحاول أن
تلوث لي حياة « زوزو » ، وأحياناً كنت أتاثر وأغار ،
ولكن عند ما أرى جبينها العالى على منال التهم ، وأرى
عينها الأشد طهراً وصفاء من عسل الربيع ، أذكر عظة
تعلمتها من حياة شاب من أصدقائي ، فأهدأ وتنطفيء في
جوانحي النار .

هو شاب تحبه « أم كلثوم » وتعبد به ، وتحلم به ...
أعنى أنه يقول ذلك ، وآية هذا الحب عنده أنها نظرت إليه
مرة ، وأطالت ، وهى تغنى فى إحدى الليالى بمسرح
الكورسال ... !

هو داء معروف يصيب معظم الشباب .
زوزو طالبة فى الجامعة المصرية ، فى السنة النهائية من
كلية الحقوق ، صوتها لحن ، ووجهها صورة ، وقوامها تمثال ،
واللحن والصورة والتمثال كلها من عمل مدرسة عليا للفنون ...
غربلوا هذه الشهادة بأى غريال تشاءون — فأنا شاب
ككل الشبان نصف ما أقوله عن المرأة ككذب ونصفه
مبالغات — وثقوا بعد ذلك أنه سيبقى لزوزو جمال ملك
وفتنة شيطان — كذلك كنت أعتقد — وعلى كل حال
فأكثر من مائة شاب كانوا يتحدثون عنها يريق فى العين ،
وبعضهم كان يتنهد ، وأنا بالذات كنت ، فى ظرف خمس
سنوات زاملتها فيها بالمنزل زمالة الجوار ، وسنتين زاملتها
فيها بالجامعة زمالة الصداقة ، كنت أكن لها أكثر من

عاطفة أخ ، وأسهر من أجلها ، وأحترق من حيث لا تعلم ،
وأؤلف خطابات وقصائد أمزقها جبنًا وخجلًا في الصباح .
أقول إنني كنت أطأ بقدمي كل الاشاعات التي
تحاول أن تلوث لي حياة زوزو ، التي كانت في نظري
محصنة بسبعة حصون . ولكن في هذه المرة كانت الأشاعة
ضخمة وعارية وغيورها حمراء ، ومجرد ابتسامتها فضيحة .
ولما حاولت أن أطأها كأخوتها بقدمي ، سحقني هي تحت
قدمها سحق الحجر الهابط من أعلى الجبل لأصفر
سالحفاة . . .

كنت أحب زوزو وأخشأها ، وأعرف تمامًا أنه ليست
هناك قوة في الوجود تفرض عليها تأدية حساب لشخص
مثلي خارج عن دائرة حياتها الشخصية ، لذلك جلست أمامها
كالتميذ المذنب ، ووضعت في قلبي كيسًا من الثلج على
رأس الكبش الهائج المحموم ، وتركت لها هي أن تفتتح
الحديث .

قالت يخيّل لي أنك مريض ؟ !

قلت : كلا

قالت : أملك مسموم ؟ ..

قلت : ربما ...

قالت : فما بك ؟

قلت : حكاية سمعتها عنك ...

قالت ضاحكة : - ولضحكهما في نفسى مثل فوخز السنان
المسموم - ... يالك من مسكين ! . أحكاية عنى تجملك
هكذا محطما كالصقر الجريح ، فماذا إذن لو سمعت كل
ما يروى عنى من حكايات ! ؟

قلت : إنها تمس شرفك بمخنجر !

قالت باسممة : اطمئن ... كلهن كذلك فأيهن تعنى ؟

قلت : وقد أثار برودها فى نفسى مزيجا من الألم

والاحتقار . هى حكاية صليب ..

قالت : أى صليب ؟ .. لا أعرف أحدا بهذا الاسم !

قلت : تتجاهلين الآن ، إنما أقصد شارة صليب أحمر ..

قالت : زدنى يانا فلم أشتغل أبدا ممرضة .

قلت وأنا أكاد أجن من هذا الدور التمثيلي الملعوب
بأتقان .. هو صليب أحمر من صباغ المانيكير وضعت على
إبهام طالب في كلية الحقوق .

قلت أهو الذي وشى بي لديك ؟
قلت لقد ذهب يشى بك إلى صديق من أصدقائه في
كلية الآداب ، فهل تعلمين ما ذا حدث ؟
قلت لن أكون في حاجة إلى ذكاء كبير لأقول
إنه صب بترولاً على الموقد المتقد !

قلت أجل ! لقد أراه لإبهامه هو الآخر ! ..
قلت وفي صوتها حشيرة مكتومة .. فوجد على
إبهامه علامة الصليب ؟

قلت كذلك يقولون ..
قلت هي إذن فرقة عشاق ؟ .

قلت بل فرقة ضحايا ، بعضهم في كلية الحقوق وبعضهم
في كلية العلوم وبعضهم في كلية الآداب .. أكلتهم أحياء
ورميتهم أشلاء !

ونظرت إلى نظرة كنظرة اللبؤة المخرجة ثم عادت
فسحبها بابتسامة وقالت وهى تفتح أدراج مكتبها فتعثر بها
واحدا واحداً ، وتخرج منها عدة صناديق وبضع مجلات ..
قالت وعلى إبهاماتهم كلهم إذن صلبان حمراء ؟
قلت .. أجل .

قالت وأنا صاحبة الصلبان ؟
قلت وأنا أفكر بحيرة فى المفاجأة التى تعدها لى من
هذه الصناديق .. ومن سواك ؟
قالت خسارة أن حبيبى هذا لم يذهب إلى كلية الطب
أيضا يفتش فيها عن منافسين ، أعنى عن جنود آخرين فى
فرقة الصلبان الحمراء

قلت من يدرى لعله يوم انتحرت تحت عجل الترام كان
ذاها إلى هناك ..

قالت أوه .. إنك تعنى مصطفى إذن ؟
قلت والبقية الباقية فى نفسى من الأمل فى براءتها
تذوب .. أجل .. أجل .. هو مصطفى ، وقد بدأنا نتفاهم

على ما يظهر . .

قالت وقد أرخت أجفانها وحدثت في الأرض ،
وامتلاً صوتها بقطرات الدموع . . مسكين كان فتي طيب
القلب ، كان ثانی اثنين ، أحبنى كلاهما بأخلاص .

قلت متهمك . : وأولهما بالطبع في كلية الآداب ؟
قالت صبراً ، فستعلم الآن من كان أولهما ومن كان
الخامس والثلاثين ا

ثم فتحت أحد الصناديق ، وأخرجت منه عدة حزم
من الرسائل مختلفة الأحجام والألوان ، على كل حزمة
منها شريط حريري أزرق ، فأخذت الحزمة الأولى وقالت
هذا الصندوق رسائل من أصدقائي في كلية العلوم ، وهذه
الرسائل بالذات من مساعد أستاذ هناك ، سنه فوق الأربعين
أى في عمر أبى ، وله خمسة أولاد .

وفتحت الصندوق الثانى وقالت وهى تبصر منه حزم
الرسائل ، وهذه خطابات من أساتذة وطلبة كلية الآداب ،
ستقرأ فيها صفحات جميلة من النثر والشعر ، المؤلف والمقتبس

بسخاء من دواوين يرون وتيسن وليالى دى موسيه ، وبكل
اللغات !

وأخذت تفك الأشرطة الحيرية عن حزم الرسائل
من مختلف الصناديق بلا ترتيب ، وتبعثر الرسائل على طول
يدها ، بحركة عصبية تسلطت عليها وخيل لى منها ومن بريق
عينها ، ومن تغير ضحكتها إلى ما يشبه ضحكات المجنون ،
أنها تحت تأثير شعور عميق جارف مضغوط .

ثم قالت وهنا رسائل كلية الحقوق ، حيث الخطابات
المكتوبة بالخط المزيف ، أو على الآلة الكاتبة ،
وبأمضاءات يمكن التحلل منها بسهولة أمام المحاكم لما أطلبهم
بالزواج ترضية للشرف المجروح . . . حزمة واحدة منها . .
هذه . . هي رسائل مصطفى . . خذ . . خذ الكل . .
اقرأها مجموعة مجموعة ، ورسالة رسالة ، اقرأها وحدك
بالليل . وخذ أيضا هذا العدد من مجلة الاستراسيون ،
حيث ترى فى الملحق الروائي له قصة تشبه تماما القصة التى
رويتها لى ، وعنوانها هي أيضا الصلبان الحمراء . . . هي

مكتوبة عن مومس في باريس . . . وبندالة رواتك أمكن
جعلها رتوشا لمصرع شاب قلبه كالأناس أحب ويئس من
حبه فمات . . . اقرأها كلها وسائل نفسك ولا تسلى إن
كانت هذه الرسائل تكتب إلى فتاة ترد على رسائل غرام
أو تضعف أمام إغراء المغرمين . . . اقرأها جميعا واذهب
فتحدّ بها أصحابها مجتمعين أن يروك إبهاما واحداً عليه
صليب من صلبانك الحمراء . . . اقرأها كلها وحدك بالليل
تحت المصباح الذى كنت أنت الآخر تؤلف تحت ضوءه
الأحمر رسائل هواك المكتوم . . . لا تحاول تكذيبى . . .
اسكت أنت ودعنى أتكلم الآن . . . إنه دفاع عن عمر
لوثوه بالأكاذيب ، إنه دفاع عن جيل من الفتيات غارق
فى المظالم . . .

وكانت ضحكتها الأولى قد ماتت تماما الآن وامتلات
عينها بدموع كبيرة تساقطت على خديها كاللآلى —
واستمرت تقول وهى تفتح الصندوق الأخير ، لاهثة
بكلماتها لهاث الصيد الطريد . . . هذه رسائلك أنت ، كان

خادمك يجمع لى فى صباح كل يوم فتاتها ، فأؤلف بعض قطعها إلى بعض لأقدمها لك هدية فى ظروف أجمل من هذه الظروف .. أتراه ذنبى أنا أن أكون إحدى فتيات يؤلفن فى الجامعة جيل الضحايا ، لأنهن بالصدفة أول فتيات دخلن طالبات .. فعشن بها كالزراع الغريب يجتذب عين المالك كما يجتذب عين الزارع ، كما يجتذب عين الحاصدين .. أتراه ذنبى أنا أن يطعم فى جسمى عدة مجانين لم يروا فى حياتهم شبح امرأة فهافتوا على كالجراذ يقضون الليل فى كتابة الرسائل والتعهدات ، والنهار فى تمزيق عرضى بمقد اليائسين وبأقذر الاتهامات .. ؟

فى الروايات تستغرق أمثال هذه الخطب الثائرة وقتا طويلا ، لكن فى الحياة عدة دقائق فقط ، تكفى — كما حدث فى هذه المرة — لثورة البركان وقذف الحمم ، ثم سده فى النهاية بقبلة مشتركة تجمع فى غيابة حلم جميل بين أربع شفاه ...

وانجلى الحلم فى النهاية فأخذتنى من يدي ثم جلست

بحي أمام المرأة ، وفتحت علبة فيها كثير من أدوات الزينة
بين مساحيق وصبغات وآلات ، ثم قالت ووجهها كله
مشرق بابتسامة . . . أعطني يدك !

قلت وقد خيل لي أنني أفهم ، ماذا تريدن ؟ قالت
أفخر على إبهامك تذكارا ، تتحدى به من تشاء !

قلت لعله الصليب الأحمر . . .

قالت نعم أميز به أول وآخر حبيب !

قلت إذن أنضم إلى الفرقة . . ؟ !

قالت وهي تضع حول الصليب سيفين . . لا كجندى

ولكن أميراً للألألي . . ! !



نور ماشير

أنى مسئول أمام الله وأمام ضميرى عن بنت حطمت
آمالها بلا قصد ، كأنها نملة صادفت مناخ بعير . .

كانت سينما المتروبول تعرض فى إحدى الليالى الماضية
الممثلة الحسنة « نور ماشير » فى رواية « عندما تحب المرأة »
وقد كان بجوارى شاب ، لم يكن لى يد فى اختياره ، ولكنها
كانت صدفة أو هكذا كنت أتصور . .

ولو أنى رأيت هذا الشاب قائما بجوارى يصلى لله فى
مسجد لما كان هناك ما يدعو إلى العجب ، لكن الأمر
يختلف فى السينما ، لأن عبد التواب أفندى رجل ساذج ،
نصف أبله ، جبينه ضيق جدا ومنحدر بشكل ظاهر إلى
الأمام ، وله عيناان معتمتان يغطيهما ويضحك ضحكة عريضة
بيضاء حينما ينجبل من شىء ، وما أكثر ما ينجبل له من

أشياء . وهو متخرج من الأزهر ومن دار العلوم وقد استبدل منذ عام واحد الطربوش بالعمامة ، والبنطلون بالقفطان ، وهو قليل التردد على دور السينما والتمثيل ، أولاً لأن وقته كمدرس للغة العربية في المدارس الابتدائية لا يسمح له باللهو والعبث ، وثانياً أنه لا يعرف غير لغة أمه وأبيه ، وكان يرى من الاجحاف المادى أن يتساوى في الدفع بشخص يفهم لغة الممثلين ! .

إن الزمن يمضي بسرعة ، وللجيل القادم ستكون « نورماشيرر » ، التي كانت تمثل في المتروبول تلك الليلة ، عبارة عن لا شيء . . . عن واحد من المجاهيل العديدة التي كان لها يوماً ما أمل وعمل في العالم ، ثم أصبحت فيه قصصاً مبهمه ، ترويتها - بلغة لا يفهمها أحد - الرمال والأحجار .
مرحبا مجد القنان السرحى ، معمر سريع ، وانحدار أسرع . .
صبح في أقصى القمة ، وليل في أدنى القرار . وإلى هذا الجيل ، إن قدر لأحد من ابنائه أن يقرأ هذه الكلمات ، أقول إن « نورماشيرر » كانت فتاة خلاصة الجمال ، باستدارة

وجهاً تحت تاج شعرها الحريري المرسل ، بعينها الداعية
إلى الحب ، بأنفها المخروط ، بشعرها المحرض على اغتصاب
القبيلات ، بكل تقاطيع وجهها وجسمها المعبرة بمنتهى البلاغة
عن السر القاتن الذي أودعته فيها الحياة . . .

هكذا كانت تبدو لي نورماشير في هذه الليلة على
الشاشة ، ولكثيرين غيري ضاقت بهم المقاعد ، لأنها مزيج
من صنعة الله القادر ، ومن فن المخرج الجبار .
ولقد كان عبد التواب أفندي واحداً من مرضى
المستديمين . . .

كان يوجد دائماً في بطنه شيء يؤلمه ، فإن أراحه بطنه
أتعبه قلبه ، فإن أراحه قلبه أتعبه شيء ما والسلام . . . إنه
كان يدفع لي أجرى قصائد مديح ، والويل للطبيب من
مرضاه الذين يطمعون فيه أحياناً حتى في ثمن الدواء . . .

وقد خطب عبد التواب أفندي فتاة طيبة ، وعلى
مستوى متوسط جداً من الثروة والجمال ، وكانت من أسرة
مستورة الحال ، لم تطمع من عبد التواب أفندي في أكثر

من الصداق الشرعى ، وقد قدره الوسطاء بعشرين جنبها ،
وتم العقد بالفعل ولم يبق على تأليف البيت الجديد إلا تحديد
يوم الزفاف بعد بضعة أسابيع . .

ولم ير عبد التواب أفندى عروسه حتى بعد الزواج ،
لأن أسرتها من بيت ريفى من مخلفات القرن التاسع عشر ،
تسمح للرجل باختيار حذائه وتجربته ، وتحرم عليه مجرد
النظر إلى شريكه حياته قبل يوم الزفاف . . .

وبعد أربع ساعات طويلة مملة ، كلها حديث عن المرضى
والأمراض فى عيادتى المسائية ، أعتقد أنه كان لى حق فى
تلك الليلة أن أرفض بتاتا الدخول مع عبد التواب أفندى
فى تفاصيل علمية عن دلالة وجود الانديكان بكثرة فى بوله
وعن السر بىكاء معدته باستمرار لكل ما يصيب جيرانها فى
بطنه من الأوجاع ، وعن المائة شىء وشىء التى كان يسألنى
عن أسرارها دائما بألحاح عجيب . . .

وقد زجرته فى الواقع بعنف لما حاول العوم فى هذه
المياه الخطرة ، وفضلت السكوت التام إلى أن يبدأ عرض

الرواية بعد انتهاء الاستراحة ، إن لم يكن هناك أمل في
تغيير الموضوع .

وخجل عبد التواب أفندى وأقفل عينيه ، وبالع في
ضحكته البيضاء ، ووضع وجهه ببلاهة في الأرض كالعادة ،
ثم سألتني إن كان يمكن أن يرجوني في رجاء أخير . . .

وخفت أن يكون هذا الرجاء سؤالاً جديداً عن آلام
المفاصل ، فقام بنفسه أن أبحث عن مقعد آخر ، ولكن
النجوم اللامعة كانت كلهما معه ، لأن المقاعد كانت كلها مملآة
بالمتهرجين . فاعتمدت على الله وتركت لعبد التواب أفندى
أذني اليمنى يفعل فيها ما يشاء . . .

قال إنك تعلم أنني الآن متزوج ؟
قلت أجل .

قال وتعلم أنني لم أر زوجتي حتى الآن . . .
قلت نعم .

قال فأني أعترف لك أنني تبعتك إلى هنا واخترت
مقعدى بجوارك لغرض . . .

قلت لعله خير . . .

قال أريد أن أعلم منك من تشبه عروسي من النساء
اللاتى تراهن فى هذه الرواية على الشاشة البيضاء ؟ .

وضحكت ملء نفسي من هذا الرجاء ، وتأملت فى قرارة
روحي من تفاهة حياة تكون هذه بدايتها بين شريكين !
وأطفئت الأنوار فى هذه اللحظة ، وبدأت السينما
بعرض الرواية ، ونسيت عبد التواب أفندى ، وعروسه ،
وأصهاره المحافظين ، ولكن عبد التواب أفندى لم يعترف
بهذه الهزيمة السهلة ! فاختار امرأة عجوزا لها دور فى القلم ثم
سألنى إن كانت عروسه تشبه هذه العجوز . . . !

و كنت الآن بين ثلاثة أشياء ، كل منها أمر من أخيه ،
أن أخنق عبد التواب أفندى وأستريح وأريح الجمهور الذى
لم يبذل ما يبذل من مال لىسمع محاورات تافهة يثنى ويهين هذا
المعتوه ، وإما أن أجيب بالنفى فأعرض نفسي لذات السؤال
كلما ظهر على اللوحة وجه جديد ، وثالثة الأثافي أن أجيب
بالأيجاب وأختصر الطريق ، فتبلغ هذه الشهادة الآنسة

إقبال عروس عبد التواب أفندى ، فأفقد عطفها ، وعطف
أسرة مكونة من عشرة أشخاص ، بينهم على الأقل ثلاثة
مرضى باستمرار . . . مرضى من الذين يدفعون . . .

وظهرت نورماشير على الشاشة في موقف من مواقف
الرواية البديعة ، فخطر لي خاطر غريب . . . ما الذى يحدث
فى العالم لو تركت عبد التواب أفندى يحلم بضعة أسابيع بهذا
الوجه الجميل ، على أنه صاحبه ، وملكه ، وخاتم نصره
الشمال ؟ ؟

ورأيت فى هذا الخاطر حلا موفقا شريفا للأشكال ،
حلا مرضيا للطرفين ، وليست له نتائج سيئة كالحلول
الأخرى ، فانهزت فرصة تمطى نورماشير على العشب
فى برنس حمام ، ووجهها تحت وجه حبيبها مشرق بعاطفة
حلوة تأسر خمسمائة عين تتطلع لها من عيون الشبان ، وتغار
منها خمسمائة عين أخرى من عيون الفتيات . . . عاطفة
تأنق فى تصويرها المخرج والمصور ونورماشير نفسها ،
حتى أصبحت تلمس بالأنامل ، وتعطر الهواء ، فاستجمعت

شجاعة نفسى ودست بقدمى على قدم عبد التواب أفندى .
وقلت له هاك صورة تقريرية لاقبال .

وكان عبد التواب أفندى يقزقز لباً فى هذه اللحظة
على الرغم من الاحتجاجات المتكررة من جيرانه ، فانقطع
صوت القزقة ، وأصبح كله عيوننا تنظر وتلهم الأشباح
الضاحكة على الشاشة ، وبات يرقب ظهور نور ما شير
بلهف وشغف ، ولم يعد يلتفت إلى ولا يكلمنى ، وخيل لى
أنه عثر على كنز ، ولو كان حقاً ما تخيلته لكان له العذر كله
فى هذا الخيال . . .

وعند ما انتهت الرواية صاحبنى عبد التواب أفندى
بحرارة ، وهز يدي حتى كاد يخلعها ، وقال لى والدمع فى عينيه :
— دكتور .. إنك أسديت لى معروفاً عظيماً . . .
إننى سوف أظل مديناً لك بهذا المعروف .

وكان وجه عبد التواب أفندى تشيع فيه ضحكة غير
عادية ، انفتح فيها فمه أكثر مما يجب ، وكأنه يفتح بمجهود .
ولكننى لم آبه لها كثيراً ، ظناً منى أنها ردت سريعاً على المجهود

الذهنى الذى كان عبد التواب افندى غارقا فيه . وقبل أن
تفترق على كلمة الشكر عاد يسألنى عما إذا كان لدى دواء
للأرق ، فنصحته أن يعد من واحد إلى مائة وينام !...

إن الأذواق تختلف بالطبع فى تقدير الجمال . لكن
توجد وجوه تضعها جاذبيتها فى مستوى فوق طاقة
الموازن ، ومن هذه الوجوه على ما كنت أعتمد وجه
نورماشيرر ولذلك كان ضميرى مستريحا جدا ، وكنت
أعتقد حقيقة أنه معروف عظيم ذلك الذى أسديته لعبدالتواب
افندى فى هذه الليلة حينما أعطيته خيوط الحلم وتركته
يؤلف منها بروجراما لعرسه الذهبى ، بروجراما ربما يكون
فى حياته المقبلة حظه الوحيد من الهناء . . إنه زواج كعلبة
البخت قد تصيب فيها قطعة من الحلوى ، وقد يصادفك
فيها جعران ! . والتمتع بشهر عسل خيالى مع زوج كنورماشيرر
بعشرين جنيتها فقط هو على كل حال ربح للمشتري وإفلاس
محقق لسوق الجمال ..

ولم أعد أرى عبد التواب أفندى لعدة أيام ، ثم زارنى

بعد ذلك ومعه هدية مانجو من عشرين حبة من نوع لذيذ
وقصيدة مدح من البحر الطويل عنوانها « طيب الأرواح
والأبدان »

وشكرت عبد التواب أفندى فأجبنى بأنى أستحق
فى الواقع أكثر من ذلك فقلت علام يا أخى ؟ قال إنك
أنقذتنى ... قلت أنا ؟ .. ولكن مم أنقذتك ؟ قال من
بؤس طويل ، لقد أرسلت لها بالأمس ورقة الطلاق ...
طلاق ! .. إننى لم أستطع أن أحدد ماذا كان يريد ،
فسألته لمن أرسلت ورقة الطلاق ؟

فضحك عبد التواب أفندى ضحكته البلهاء ، وأقفل
عينيه ، وفهمت أنه يريد إقبال وتمنيت فى هذه اللحظة لو
أستطعت فصنعتة صفة تعلمه خجل الرجال ، ولكننى بالأسف
طبيب ، والطبيب يدخل فى قائمة الأشخاص الذى ينبغى لهم
أن ينادوا الكناس يا حضرة الفاضل ، والذين يجب عليهم إدارة
خلق الله أجمعين ، القائمة التى على رأسها يوجد الحلاق ...
وأعدت عليه السؤال : لمن أرسلت ورقة الطلاق ؟ ..

وكلى أمل كأمل الفريق في جواب غير الذى قدرته
وفكرت فيه .

فقال لى ووجهه فى الأرض : لأقبال ، «البوصة» التى
أريتنى صورتها بالأمس ، المريضة بالسل ، التى يشبه وجهها
وجه البوم ! . . .

واتضح لى فى النهاية وأنا أفيق من دوارى أن
عبد التواب أفندى لم يعجبه أن تكون عروسه كنورماشير
وأن نورماشير هذه المبالغ فيها والتى هى مزيج من قدرة
الله ومهارة الفنان قد وجدت فى النهاية من يرفض شراء
نسخة منها بعشرين جنيها من سوق الرقيق ! . . .

والأدهى من ذلك أن العشرين جنيها التى دفعها
عبد التواب أفندى صداقا لعروسه ، على ما سمعت من أمها
فما بعد كانت . . . على عشرة أقساط !

ولما لم أستطع أن أصنع عبد التواب أفندى ، انتهزت
فرصة خلوى بنفى فى المساء فضربت نفى عشرين شبشا

على خدى اليمين ، ومثلها على خدى الشمال ، من أجل عبد
التواب أفندى أولا ، وثانيا من أجل الفتاة المسكينة التى
حطمت مستقبلها بلا ذنب ، أعنى إقبال .



الكل . هذه هي الخمر

حدث زميل لي قال :

« إنها ساذجة كالطفل ! » . . . هذا ما قلته لنفسى وهي
تخلق فى قدح البيرة الموضوع أمامى ، مأخوذة بمنظره ، ثم
تخضه بيدها فيساقط منه الزبد ، فتقول لى ضاحكة ببلاهة
واستغراب . . « إذن فهذه هى الخمر ؟ »

وضحكت أنا الآخر لهذه الساذجة المحبوبة من فتاة
فى سن العشرين ، تعيش فى عصر أصبحت فيه الشمبانيا
غازوة السيدات !

ومضى السؤال بلا جواب لأن الخادم وافانا بأول
ألوان الطعام ، وكنا تتناوله فى عربة الأكل بقطار الظهر
العائد من بورسعيد .

وسنحت لى فرصة طيبة - لما أسندت رأسها إلى خشب
النافذة متعبة من هزات القطار - للتأمل بحرية فى صدرها

الناضج ، وفي عنقها المرمرى ، وفي وجهها الحاوى لارق
شفاه وأطول أهداب وأفن عيون وأجل خال في أبدع
خدود ، وللتحسر الصامت على أن ماضى شبانى كله على
خصبه وعمرانه بأنضر الذكريات ، لا يوجد فيه مثل هذه
الصورة ، لا في الفتنة الشائعة فيها ولا في خلوها من كل
آثار الصناعة والهندسة والتجميل .

والذين خبروا مثلى شيئا من معجزات الصدف يدركون
بسهولة بأى الأجنحة كنت أطيّر في جنة الأحلام ، لما
أذكر أن هذا الكنز الذى أكاد أصبح مالكه الوحيد هو
ابن الصدفة وحدها ، الصدفة التى أضلت هذه الفتاة عن
منزل خالها في بور سعيد .

إننى شاب فى الثامنة والعشرين ، ومهنتى طبيب ، وعلمتى
تجارب عشرة أعوام أنه من العبث أن أتزوج من بنت
مجموع جلساتها اليومية أمام المراة ست ساعات ، وتنتظر
بلهفة تغيير البروجرام الأسبوعى فى كل السينما توغرفات ،
وتعرف من أسماء الكتب السرية أكثر مما تعرف إدارة

الأمن العام ، ولها قصص غرام ، ومجموعة من العشاق تنتظر
على باب المسرح ارتفاع الستار ، وتتحدث بطلاقة عن
السيارات والممثلين ، وأنواع الشبان والعطورات ثم تحرق
نفسها إذا اضطرتها الظروف يوما إلى قلى ثلاث بيضات !
أقول إن ذلك من العبث لأنى رجل فقير ، والمرأة
الطموح لا تصبر على الحرمان ، ولا أحب أن أكون فى
عيادتي طيبيا ، وفى منزلى « برافانا » ومرضعة أولاد !

ومن أجل ذلك كانت عيني متجهة دائما إلى الأسر
المتوسطة الحال فى الريف ، أبحث بينها عن بنت متوسطة
الجمال والعلم وتدرى بالفطرة أن رأس مالها الوحيد فى مستقبل
حياتها الزوجية ، هو نصيبها من الشرف والعفة والكرامة ،
وأكل اللقمة السواء بلا تردد ولا تفكير ، وغسل قماط ولدها
بلا تأفف ولا اشمئزاز ، وبالأخص السكوت عند ما تطالب
فى بعض الأحيان بالسكوت . . .

وفى اللحظة الحرجة عند ما كدت أياس من كلتا
الفتاتين ، بنت الحضر الجديد وبنت الريف القديم ، ألفت

إلى الرياح الطيبة التي تصادف الانسان مرة في عمره هذه
الفتاة السارحة بعينها الناعستين في حقول القطن الخضراء ،
التي تعرض نفسها كالقلم من نافذة القطار . .

لأنها تحية السماء لعواطفى ، ومكافأة الصبر الطويل .
وفوق أنها ساذجة قد مرت معى أكثر من مرة على
حوانيت الأقمشة وباعة الحلى وخردوات النساء فى بورسعيد
ولا أذكر أنها وقفت مرة على أحدها وقفة المتمنى ، تتطلع
بالعين الزانية إلى شجرة التفاح ! . .

والأجل من ذلك فى نظرى احتشامها فى ثيابها ،
وأنفقتها من عرض جسمها على أعين المستحمين فى البلاج
برخص التراب ، والحمرة التى كست وجهها كله لما فاوضتها فى
الاستحمام معى فأخبرتني بحزم وخجل أنها لم تنزل البحر طول
حياتها وأنها لا تملك حتى ملابس الحمام . . .

وفى ذات يوم عثرنا بطفل يلعب بالرمل ولا أحد معه
ونادى الطفل أمه فلم يجدها فبكى ، فامتلاً قلبي بالمعطف
والشكر والتقدير لما رأيته . . النهاية لاداعى للتفاصيل . . .

كانت تمثالا بديعا لأُم محبة ومحبوبة ، وفي الوقت نفسه صورة تامة للفلاحة المصرية المستقبلية كما أتصورها أنا ، جامعة بين الثقافة المتوسطة ، والوجه الطبيعي ، والأنوثة الحية والقلب الحنون .

وفي نهاية الأسبوعين الذين قضيتهما على مقربة منها في بور سعيد ، أصبحت أستطيع أن أقرأ نفسها في عينها كما أقرأ في الكتاب ، ومع جهلى التام لكل شيء عن ذويها وعن ماضيها كان أول عمل لى عند ما عدنا معا إلى القاهرة ، هي إلى بيتها وأنا إلى عيادتى ، هو البحث عن هدية الزواج التى اعترمت أن أفاجئها بها عند أول لقاء .

وفي العيادة على الرغم من شعورى بالكارثة التى حلت بى من جراء هذه الغيبة الطويلة ، فقد كنت استسمحت بمرضاى فى يوم واحد أشم فيه نسيم البحر فى بور سعيد ، بدا لى أن كل شيء فى حياتى قد تغير ، وأن الدنيا كلها قد بسمت لى ، وأن الصور والمقاعد الخرساء كلها تدعوى بالرفاء والبنين . وورق الجدران نفسه زها لونه فى نظرى وازدهر ، والمرضى

الثلاثة الذين استشاروني في اليومين التاليين خيل لي أنهم
شفوا بالسحر ، وأنهم يشاطرونني السعادة بحلم مجهول .

ولما دق جرس التليفون ، وطلبت لأولى العيادات
الخصوصية في حيأتى الطيبة ، ومن منزل في حدائق القبة
بينما عيادتي في شارع المبتديان ، شعرت كأن الحظ الموفق
محموم ، وكأنه في هذيانه يغمر في دائرة حياتي كل الأشياء .

أنك تعرف بالدقة ما هي العيادة الخاصة الأولى في حياة
الطبيب ، إنها ورقة اليانصيب التي تريح ألف جنيه على غير
انتظار ... إنها بداية المجد القريب !

ولما كنت أجمع أدوات الاسعاف بمزيج من الغبطة
والتفاؤل والاضطراب ، حدثت نفسي بصوت مسموع ...
لأنى أشهر !

وفي نفس اللحظة بالذات وقعت منى حقنة على الأرض
فانكسرت ، فأخذت غيرها وطردت الفأل السيء . بلعنة
الشیطان .

ولما كان عليّ أن أزور بيت خطيوتي في مساء اليوم

لأول مرة ، لكي تقدمني إلى أمها ، رأيت احتياطا للظروف
أن آخذ معى علبة السوار الذهبى الذى أعددت له لشبكة العروس .
وفى البيت المنعزل الذى دعيت إليه ، قابلنى شاب
وسيم تبدو على وجهه مظاهر الذعر والقلق فأيقظنى من
الحلم البهيج .

لكن ماذا يهم إن كان الشاب قد طلبنى لنفسى أو هو
استدعانى لأن اسمى بالصدفة كان مبتدئا بحرف الألف ،
وكان الثالث فى قائمة الأطباء بدقتر التليفون ، ولأن الطيبين
الأولين لم يكن أحدهما بالعيادة ، وتليفون الثانى كان مشغولا
باستمرار . . . !

على كل حال لم يكن لى سوى أن أحمد الله على أن
الضوء الأحمر الضئيل فى الغرفة المسدولة الستار ، لم يدع له
فرصة يرى فيها حطام الحلم سابحا فى كمد الوجه الكئيب .
وحتى المريضة نفسها التى دعيت من أجل إسعافها ظهر
أنها ليست مريضة ، ولكنها سكرانة ، شربت نصف زجاجة
من الويسكى كانت تخففه بالنبيذ ، وكما قال لى الشاب المذعور

لإنها ليست أول مرة تشرب فيها بهذه الصفة وهذا الشره ،
ولكنها أول مرة تبدو فيها هكذا ثملة كالقتيل ، على الرغم
من الاسعافات المؤقتة التي لجأ إليها الشاب طوال أربع
ساعات .

وما هو إلا أن بدأت في إسعافها على الرائحة المنتنة
للكحول المتخمر ، صاعدة من فمها ، وهي منكفئة على
وجهها في السرير حتى شعرت أن ظلاما مباغتا قاسيا ،
يستل من روعي وعيني الشعور والنور .

توجد قصص واقعية في الحياة ، ولكنها أعجب من
الخيال

هذا الوجه ، وهذه الأهداب ، وهذا الخال وتلك
الحدود . . . يا لله !

إنها عروسي . . . إنها أنضر ذكرياتي كما أراها الآن
أنقاصا قدرة في سرير نجس ، إنها حلم حياتي يتبدد فجأة
على كف شيطان .

وكل شيء فيها كان مصيدة ، وكلها كانت صناعة وتمثالا

من أخط الخزف والحما والطين .

كالعلم ، ومن حيث لا أشعروا أدري ما أقول ، هتفت
بالجيفة النائمة . . « أجل هذه هي الحمر » . . . وشعرت أنني
أجيب على سؤال لم أدر أين ولا متى سمعته قبل الآن . . .
وأردت أن أتناول علبة الحقنة من حقيتي فتناولت
بدلاً منها علبة السوار .

ولا أدري ماذا فعلت بعدئذ ، ولا ماذا قلت ، وكل
ما سمعته صرخات من خلياتها الشاب الوسيم دوّت في سماء
الليل الساكن يستغيث بالمارة . . . مجنون . . . مجنون !!



وركة

كل شخص في دار رءوف باشا كان يمنحها ابتسامة ،
البواب والجنان والخادم الذي حمل رسالتها إلى سيده بعد أن
قادها إلى غرفة الانتظار . . ابتسامة من رأى وعرف سيدات
قبلها ومثلها يدخلن هذا البيت الذي لا سيدة فيه !

لم تكن بثينة جميلة ولا جذابة ، ولكنها كانت فتاة
تفري بها أنوثتها ، ويفري بها شبابها ، ويشفع لها عند رءوف
باشا مقطع الثياب بمهارة على جسمها الينع . فما كاد يراها حينما
أقبل عليها والرسالة منشورة في إحدى يديه ، ويده الأخرى
تمتد إليها بكلمة الترحيب ، حتى استحالت شفهاه الذابلتان إلى
ابتسامة مخلصه ، واستحالت عيناه الخابيتان إلى ذبالتى مصباح
وتدفقت من لسانه التحايا تدفق السيل من ميزاب .

كانت أولى معارك الشباب والشيخوخة على كيان
رءوف باشا يوم ماتت شريكه حياته منذ خمسة أعوام ، فأقسم
على تراب قبرها أن يبنى لها حتى يضمها اللحد رفاتنا إلى رفات
ثم كانت ثانية هذه المعارك الحاسمة يوم أرغم رءوف باشا على
الاستقالة من عمله في وزارة الحرية منذ ثلاثة أعوام ، على
أثر سلسلة من المضامح النسائية أثبت فيها رءوف باشا وفاءه
لشريكه حياته ، وإخلاصه لذكرها ، وبره بما نذر على قبرها
من عهود ؟ !

ومن هذا اليوم توالى عليه انتصارات الشيخوخة ،
وتوالى هزائم الشباب ... عيناه أسن الماء فيهما وتضاءل
النور ، ورأسه وخطه الشيب وجينته تفرقت فيه القضون
وتجمعت ، وارتعشت يداه ، وتخاذلت قواه ، وكاه تهدم وتحطم
وعاث الهرم فيه ، إلا بضعة منه ظلت تحت أضلعه تغازلها
بين الحين والحين همسة من همسات الشباب .

وضع رءوف باشا منظاره على عينيه ، وهو يجلس على

طرف الكنبة التي جلست بثينة على طرفها الآخر وعاد للمرة الثانية يقرأ الخطاب الذي حملته بثينة إليه .

وظلت هي في مجلسها صامته ، يخفق قلبها خفقان الشروع بين اليأس والأمل ، وترقب عينها بشره وانتظار كل بادرة تبدو على أسارير وجهه المعجوز .

وخلع رءوف باشا المنظار عن عينيه واتجه يبصره إلى بثينة ، فظل يرقبها لحظة والابتسامة لا تفارق شفثيه قبل أن يلقي عليها هذا السؤال :

إذن فأنت ابنة حبيبي وصديقي الجبالي ؟

قالت وقلبها يثب في صدرها وثبة الرجاء نعم . كان أبي في الجيش في الأورطة التاسعة ، وقد أوصاني قبل موته أن أحمل إليك هذه الرسالة إذا احتجت يوماً ما إلى عون أو نصير .

إنني اشتغل معلمة في مدرسة أطفال وأتقاضى راتباً مقداره أربعة جنيهات ولى عشرة أعوام وأنا منفية في بلد سحيق بجوار أسيوط والشكوى تعتبر جريمة في وزارة

المعارف والويل لمن لا حامي له ولا ظهير .
وبدا التأثير على وجه رءوف وأخذ يردد بين شفثيه
« مسكينة . . مسكينة » ثم أهوى على يدها بكتها يديه
واندفع يقول وفي صوته حنان أب وفي عينه سحابة من
سحب الدموع

هذا ظلم فادح يا بنية ، لا عليك بعد اليوم ، إن وزير
المعارف صديق ، وقد كان بالألمس فقط يسألني إذا كان
يستطيع أن يؤدي لي خدمة . . أجل إنه يستطيع ، اكتبني
لي التماسا في الحال وسأحمله إليه الآن وتمنى عليه ما تشائين .
قالت ها هو ذا ، وأخرجت من جيب معطفها ورقة
مطوية دفعها إليه ، فدفنها بين الحشايا والوسائد ، واستعاد
يدها ، وعاد يتفرس في وجهها ويقول . . . أجل يستطيع
وزير المعارف أن يعمل عملا عظيما ، أن يجعل هذه الشفاه
الجميلة تبسم ، أن يجعل رفات صديقي وأخي الجبالي بك ينام
في قبره مستريح البال . . . ما أشد الشبه بينك وبين أبيك ،
لك قوامه الرشيق ، لك وجهه الصريح ، لك عيناه الزاخرتان

ينبل الملوك ، وشجاعة أبطال التاريخ القديم ، لك فيه الذى
ينفرج عن فتنة الحور والولدان . . أجل أراه فى وجهك
الآن . . . سنة ١٩١٠ ، ثورة القبائل فى كوردفان . . ضلالتنا
معاً فى غابات خط الاستواء ، السبع الذى فاجأنا هناك وبنادقنا
خلو من الرصاص ، يزار كما يزار الرعد وتتوهج عيناه كأنهما
جمرتان ، وتقف نيوبه الزرقاء فى فيه كأنها عمدة تفتح بينها
باب من أبواب جهنم ! . . يالها أيام كانت أخوتنا فيها فوق
المحن والعواصف والمخاوف والأهوال ! . . تمنى على يابنية .
فلو أننى ميت لسعيت إليك أجرأ أكفانى من أجل ذكرى
أليك ! . .

وبين نداء مرآتها كامرأة تريد أن ترى فى عينها لأول
مرة نبيل الملوك ، وبين شعورها بالضعة من هذه الذكرى
المزيفة لأب لم تعرف لحياته الوضيعة مفخرة من هذه المفاخر ،
وبين الأشفاق على هذا الرجل الطيب أن تفجعه فى تاريخ
كأن هذه الذكرى فيه أنضر وأغلى الذكريات ، وبين
الأشفاق على نفسها أن تفجع نفسها فى هذه البارقة من بوارق
(١٢)

الأمّل إن هي وفّت للحق ، ووفّت لتاريخ أبيها ، وقالت
لرءوف باشا إن أباهما هذا لم يكن سوى جندي بسيط ،
وإن هذا الجندي البسيط لم يكن سوى خادم ، وإن هذا
الخادم كان في سنة ١٩١٠ رقانا لم يترك فيه الدود غير العظم
والتراب . . . بين هذه العواطف المضطربة ذهلت بثينة عن
نفسها ، وعن تاريخ أبيها ، وعن كل ما كان رءوف باشا يشير
إليه من أقاصيص ، فاستسلمت في ذهولها إليه فضمها إلى
صدره ، ثم وضع على وجهها قبلة طويلة عمياء ، ضلت مكان
قبلات الأب من جبين بثينة ، وتدحرجت كأنما بلا قصد
إلى فمها الذي كان ينفرج لرءوف باشا عن فتحة الحور
والولدان . !

جلست بثينة تنتظر عودة الباشا من وزارة المعارف ،
والأمّل يبسم في وجهها مرة ، والقلق يعبس فيه مرة ، وألوف
من خواطر حياتها الماضية ، ومستقبلها الموضوع في كف
القدر ، تحلّق في خيالها طائفة كالأشباح بين بيض وسود .

وأخيرا عاد رءوف باشا ، فدخل عليها يمسح العرق
عن جبينه ، ويستعيد بالصمت والجلوس هدوء أنفاسه
المتوالية ، وتشيع في وجهه المحمر ابتسامة مشرقة عدتها
بثينه أولى بشائر الآمال .

— انتهى يا عزيزتى كل شيء تعينين ناظرة ،
وفي إحدى مدارس القاهرة ، وبمرتب لا تحلم به فتاة . . .
دعيني أسترح ثم أقص عليك كل شيء .

وطفر قلبها طفرة أحست أن أركان صدرها تتصدع
لها من الفرح ، و قبلت جبينه قبلة خالصة ، تخطت فيها
أغلال السن ، وفوارق المركز ، وجمعت فيها الشباب
والشيخوخة على بساط عرس منضود .

واسترد رءوف باشا هدوء أنفاسه وابتدأ يقص عليها
تفاصيل الحديث . . .

— ألم أقل لك إن صديقي وزير المعارف لا يبخل على
بشيء ؟ حينما دخلت عليه عركت أذنه بعنف — وكم عركت
من قبله آذان وزراء ! — ثم وضعت أمامه التماسك ، وقلت له

اكتب هنا ما أمني عليك . . . ماذا بك ؟ ماذا بك ؟
مريضة ؟ أستدعى الطبيب . . . ؟

في الواقع كان وجه بثينة يصفراً صفرة الموت ، وهي
تنهض من مجلسها بجواره نافرة كأنما لدغتها عقرب ، وتنجيب
على أسئلته المتوالية بصوت كأنه حشرة محتضر :

— لا شيء ، لا شيء ، أكمل ياسيدى الباشا حديثك
ماذا أملت وماذا كتب الوزير على هذا الالتماس ؟

— كتب جملة قصيرة ولكنها عظيمة المدلول « تعين
بثينة الجبالى ناظرة لمدرسة . . . بالقاهرة ، ومرتب . . . ابتداء
من شهر اكتوبر الحالى » فهل كنت تطمعين فى أكثر
من هذا ؟ أنبئينى ماذا ترغين ؟ باب الوزير مفتوح لى فى أى
وقت لأى رجاء . . .

— وكتب هذا كله تحت الالتماس ؟

— أجل ، أجل يا عزيزتى . . . فهمت — وقفه فقهة
عالية خيل لبثينة أنها تحطم ما أبقى عليه الشؤم فى نفسها من
قوة أعصاب — إنك تستكثرين على وزير المعارف أن ينفذ

بهذه السهولة ما يشاء . . . اطمئني يا عزيزتي فوزارتنا مسارح
تمثل عليها كل يوم ألوف من هذه الروايات !
كانت بثينة مستعدة أن تصدق رءوف باشا لو قال لها
إن وزير المعارف سينزل عن مكانه في الوزارة ، ويضعها فيه
لكن حكاية هذا الالتماس ، وتوقيع الوزير عليه بالذات ،
سلّ من قلبها كل يقين وإيمان . . .

هرب الدم من وجهها ، وطفرت من عينيها الدموع ،
نم مشت تجر خطاها حتى أتت مجلسها الأول فدست يدها
بين الحشايا والوسائد ، وأخرجت التماسها من حيث وضعه
الباشا في ساعة تجليّه ، وقد عثرت به بعد خروج الباشا لمقابلة
الوزير ، وظنته بلا قيمة في عين رجل له هذه الدالة كلها
على معالي الوزير ! .

واستجمعت قواها الخائرة ، فقدمت له التماسها بيد ،
وصفّفته بالأخرى صفعة دوت لها أرجاء المكان . . .
وتركته ، وتركت له كلمة تجمعت فيها مصائبها جميعا ،
كانت كل ما استطاع أن ينطق به لسانها المشلول . . .

— يا نذل !

وخرجت إلى الطريق تشيعها ابتسامة الخادم والجنان
والبواب ، ابتسامة من رأى سيدات قبلها ومثلها يخرجن من
هذا البيت الذى لا سيدة فيه !!



البعير

منه

لبث محمد بك في المرقص حتى بعد منتصف الليل
بساعات . على أن هذا الزمن الطويل الذي قضاء هناك ،
من الساعة التاسعة لم يكن في نظره زمن لهو وعبث ، أو
لذة وسرور ، كما يكون عادة في أنظار رواد المراقص .
لقد شبعت نفسه من هذه المناظر المخنثة حتى سئمتها ،
فباتت عيون الراقصات أبرد من أن توقد في نفسه شهوة
أو شراهة ، وباتت كؤوس الخمر معها توالى واطردت ،
أعيا من أن تورث رأسه المصفح نشوة ينسى فيها همومه ،
أو يتعالى بها عما يجول بنفسه الخاملة من كآبة وموت وفتور .
وبات وهو ينظر إلى هذه الدنيا المتحركة من حوله نظرة
للملول لا تتحقق في خياله أمنية سامية ، ولا يضطرب في

سواء مستقبله كوكب لماع .

المال بين يديه كثير لا ينفى ، والفراغ في أوقاته متسع
لا ينقطع ، والشباب بعد أن هدأت في رأسه حماقته أخذ
في الذبول . والجاء والأهل وهم زينة الحياة لم يكن له منهم
نصيب ، فقد كان يعيش في غرف منقطعة بعماراة كبيرة في
حي آهل من أحياء القاهرة ، وكانت تلى أمره فيها خادم
حسنة كانت ضحية من ضحاياه . وكل المطامع التي يجري
وراءها الناس كانت في عينه سخریات قاتلة . تأكل أجسامهم
وتفنى عقولهم ، وتشتري أرواحهم بثمن بخس يسمونه إكليل
المجد والفخار . والایمان بالله كان في ذهنه الراكد بلاهة
مجسمة في رؤوس أصحابها كل نصيبهم منها جوع في الصوم
وتعب في الصلاة ، ومجهود ضائع في رفع أكفهم للسماء
تضرعا ودعاء ، والذمة والشرف والضمير كانت في نظره
ألفاظا مرنة تسع المعاني التي تواضع عليها الناس ، وتسع
بجوارها شباكا منصوبة للصييد ينهض الضعاف في حمايتها
حتى يتزن البقاء ، ولا يعرف الأقوياء عنها إلا ما يعرف

أهل الأرض عن عوالم السماء . . .

وهكذا عاش محمد بك حيوانا يدل على ذلك الأصل
المجهول الذى تسلسل منه الناس .

عاش طينه عجيبة ، فيها تراب الجهل ، وفيها ماء الغفلة
وفيه أثر من آثار الألحاد الأبله والفلسفة الحمقاء !

وثقل رأسه فى هذه الليلة من فعل الحمر والموسيقى
وضجيج الراقصين ، فارتدى معطفه وقفازه ، وودع رفقاءه ،
وانصرف إلى سيارة تنتظره بالباب .

كان الليل باردا ممطرا ، وكانت كآبة الشتاء تتجلى فى
تلك السحب السوداء التى حجبت صفو السماء ، وفى تلك
المدافع الجبارة التى كانت تقصف راعدة فى جوانب الفضاء ،
وفى تلك الرياح النافخة التى كانت تعزف على أوتار النصوص
عزيفا موحشا ، كأنه أنين الأوراق الذابلة ، ساقطة من
أشجارها ، مستسلمة إلى قدرها المجهول بين الوحول

والأكدار ، وفي تلك الروح الحزينة التي لفت كل شيء ،
وملأت كل فجوة من فجوات تلك الطبيعة الهرمة واستبدت
بكل شبح من أشباح هذا الليل العاصف الطويل .

وكان محمد بك وهو يواجه هذا الجو العاصب يشعر له
بروعة مخيفة تضطرب في خرائب نفسه المتداعية ، فيضغط
رأسه على عنقه ، ويغرس هذا بين كتفيه لعل في فروة المعطف
متسما للجميع يتوارون فيه من هذا العدو القادر ، ويدفن
يديه في جيوب هذا المعطف حتى لا ينفذ الزمهرير من
نسيج قفازه السميك ، ومع كل هذا فتلك اللحظة التي قضاهما
بين باب المرقص الدافئ ، ومقعد السيارة الوثير كانت كافية
لتؤلم وجهه ، وتصيب أنفه بالزكام ! .

ولم يكن يؤلمه والسيارة تهتز به هزاتها الناعمة في طريقها
إلى المنزل إلا ذكرى تلك اللحظة الثانية ، التي سيواجه
فيها قسوة هذا الشتاء المظلم أمام باب الدار حتى إذا وقعت
به السيارة هناك ، قفز قفزة واحدة استجمع فيها كل قوته
ووصل بها إلى هذا الباب الكبير الذي كان مفتوحا له طول

الليل ثم أغلقه من ورائه وابتدأ في صعود السلم آمناً وطأة
الريح ، ولفحة الزمهرير .

وعلى السلم خيل إليه في نوره الضئيل أنه يرى كتلتين
من لحم بشري تعتمدان الجدار بظھريهما ، وتلاصقان من
الجنب كأنما تبحث كلتاھما في حمى الأخرى عن الدفء
والحياة !

في ثياب ممزقة قدرة نام الطفلان البائسان هذه النومة
المحزنة على رخام السلم البارد . فوقف الرجل أمامهما وقفة
لا يدري أحد أھى وقفة إشفاق لا عهد له بهذه النفس الميتة
أم وقفة فلسفة رحیمة تحسن القياس بين آلامه هو — في
القرو والمعطف — وبين ابتسامة هذين الطريدين في العری
والحفاء ! . . .

نظرة إلى تلك الشفاه المنفرجة بابتسامة راضية قانعة ،
وحلم سعيد معسول ، وأخرى إلى تلك الصدور تعلو وتهبط
بأنفاس الرضا من كل غايات الحياة بالكفاف ، وأخرى إلى
تلك الأذرع العارية تضم في أحضانها جسم شريكها في

البؤس ، فتحوطه بشيء من العطف الذي حرّمته منه البشرية
الظالمة ، وشيء من الدفء الذي بخلت به عليه ثورة الطبيعة ،
في ليالى الشتاء ، تحت هذه النظرات المشفقة نسي الرجل
نفسه ، وشعر أن مطرقة هائلة تهبط من السماء على رأس
ذلك النول المادى الذي ملأ أركان نفسه فتحطمه تحطياً ،
وأحس أن روحاً جديداً ينساب إلى هذه النفس في حاشية
من الرحمة والخزان واليقين وكل عاطفة طيبة حرم منها شبابه
الجاف الضريع . . .

ركع أمام الطفلين فرأى في تقاطيع وجهيهما وتجاويع
شعريهما أنه أمام طفل وفتاة ، وكأنهما في هذا الحزن عروسان
في شهر عسل حزين . . ومس الطفل ييده فأفاق من نومه
مذعوراً وأيقظ الفتاة في حركة كان كأنما يهيم فيها بالفرار ،
إلا أن نظرة الرجل الرحيمة طمأننتها قليلاً ، فعلم أنها أمام
رجل ليس بشرطى ولا خفير ! وازدادت طمأننتهما لما قال
يخاطب الطفل :

— أنما هنا يا بنى منذ زمن طويل ؟

— فأجاب الطفل :

— منذ سمع لنا صاحب البيت بأن ننام في هذا المكان
الدافئ الأمين !
وأُكملت الطفلة . . .

— الرجل الأسود الطويل . . .
قال :

— وهل لا يؤلمكما البرد هنا ؟
قال الطفل متشهدا :

— البرد ؟ وماذا تقول إذن في رصيف الشارع لو نمت
فيه ليلة ؟ إنه مؤلم . . . ملمون . . . لأننا هنا . . . ثم رفع عينيه
يجول بها بين هذه الجدران الشاهقة واستمر يقول . . . في
مكان لم ندم بمثله أبداً . . .

وأخرج محمد بك من جيبه ريالاً وعرضه على الطفل
فنظر له هو وأخته نظرة فرحة غريبة لكنهما لم يمداه يداً ،
بل انتقلا بعينيهما من وجه الريال إلى وجه المحسن الكريم
كما توهماه ، وقال الطفل في صوت متهدج :

— ماذا نصنع بهذا يا سيدى ؟ سيأخذونه منا غدا ،
ويقولون إنكم لصوص ، خير لنا منه قرش أو رغيف !
وهنا كان الرجل قد تراكت نفسه كلها فى دمة
انحدرت على خده فرد الريال إلى جيبه وأعطاهما قطعة
بخمسة قروش ثم تركها إلى ما كانا فيه من نشوة وابتهاج ،
يضعانها بعناية فى صندوق من الصفيح كانا يجمعان فيه أعقاب
السجائر من الطريق ، وصعد هو إلى غرفته بقلب متألم
خفاق .

كانت الخادم بانتظاره جالسة على مقعد مستسلمة إلى
نوم متقطع ، فلما دق الجرس هبت فزعة وفتحت له الباب .
لا تقريع فى هذه الليلة ولا عتاب ، والجين العابس
ليس به أثر لقطوب ، والعين الجافة ندية بالدموع ، وهكذا
رأت الفتاة فى سيدها خلقا جديداً .

وكان هو بدوره ينظر إليها نظرة طويلة لم يخلع فيها
المعطف والقفاز كما كانت عادته بل كان ساكنا سكون
الصنم ، فتولاها عجب شديد .

قال :

« نجية . هل رأيت البؤساء ؟ لماذا لم تعطيهن طعاما ،
لماذا لم تجودى عليهن بغطاء من تلك الأغطية التي ترحم هذا
السريير ، بل لماذا لم تأت بهن إلى هنا ، إنهن مساكين في
حاجة إلى العدل والرحمة والحنان . »

كانت نجية تنظر إلى سيدها الآن نظرة غريبة ، فقد
خافت أن يكون الرجل مجنوناً ، فأجابته في هدوء :

— أى بؤساء تعنى يا سيدى ؟

قال :

— أما رأيتهن على قاعدة السلم كأنهن ملائكة في

جحيم ؟

قالت :

— أبداً يا سيدى . أنا لا أرى البؤس والبؤساء إلا حينما
أنظر إلى نفسى فى المرآة ، وحينما أنظر إليك وأنت قادم
لتطعم على شفتى تلك القبلة الباردة ، التى أصبحت كل
نصيبي من غرام الشباب .

وأحس الرجل بهذه الطعنة في صميم قلبه فهوى
بناظره إلى الأرض ثم رفع رأسه إليها بعين مخضلة
بالدموع وقال :

— نجيّة ! إن استغفرتك عن كل ما أصبتك فيه من
شرف وكرامة ، وعن كل ما عاملتك به من قسوة وظلم ،
فهل تغفرين لي ؟

وتطلعت إليه بعين مكسورة الجفون .

فاقترب منها محمد بك حتى التصق صدره بصدرها ثم
احتضنها بين ذراعيه وأهوى على شفيتها بقبلة . . لم تكن
باردة كما كانت قبلاته دائماً بل كانت حارة تكوى شفيتها
بحرارة الشباب المبعوث من قبره ، وحرارة النفس المستيقظة
من سباتها الميت العميق . ثم ناجاها في نغم منخفض :

— سنكون زوجين من الغد أمام الله وأمام الناس .
وسيكون لنا ولدان من هذين الطفلين الصغيرين اللذين ردّاني
إلى الحياة وأزاحا عن كاهلي ذلك السكابوس الخائق الذي
صور لي الدنيا ضعة وجوداً وشهوات .

ثم رفع يديه إلى السماء هاتفا :
— رباه . ها أنذا عائد إليك . . . أني أسألك العفو
والغفران .

كان الطفلان الآن يحلمان في اليقظة التامة ، بهذه الثروة
المؤاتية ، وهذا الرزق الجديد . لقد منحهما القدر حياة يوم
مترف سعيد بلا عمل ولا مجهود ، فاتفقا على أن يجعلاه
عيداً ، وطفقا يضعان بروجراما لهذا العيد .

لا سجائر ولا أعقاب في القند ، ولا تعرض لشتائم
الجمهور ولا لعصى رجال البوليس . . . هكذا اتفقا أولاً على
تمضية يوم العيد ، ثم اتفقا ثانياً على أن يأكلا في هذا اليوم
حما يأكل الملوك . !

وهنا اختلف الطفلان ، هو يزعم أن الملوك يفطرون
على الفول بالزبدة ، وهي تزعم أنهم يفطرون على البيض
المسلوق . . . وهو يزعم أنهم يأكلون في غداًهم كوارع ،
وهي تزعم أن غداًهم كباب . . .

وإذ هما في هذه الأحلام يختلفان ويأتلفان ، إذ رأيا

محمد بك عائدا إليهما من رأس السلم ، وفي يده عصا يتوكأ عليها ، وهو يسترق الخطأ ، لكيلا يزعج بزعبج بخطاه أحلام النائمين ، فتعلق كلاهما بالآخر جزعا وفزعا حينما رأياه ، وتبادلا نظرة تفاهما فيها على الخطوة المثلى للفرار من هذا المحسن الذي خيل لهما أنه نادم على ما قدّم من إحسان . . . واستجمعا كل قواهما ، ثم هبا في وثبة واحدة انتظمت من السلم خمس درجات ، فأذاهما في الطريق مجريان بحقة الأرناب وسيقان النعام ، وإذا محمد بك من ورائهما ياهث وينادى ولكن بلا مجيب !

وتحت سلم منزل صغير في حارة مظلمة جلس الطفلان يستردان ما ضاع من قواهما المتعبة ، ويتحسسان القطعة الفضية باطمئنان ، ويضحكان همسا لنجاحهما في الفرار . . . الفرار من الجنة والنعيم . !

ابن الله

« ... كنا أسعد زوجين - أيها السادة - وأنعم هامتين
آوتهما أغصان الربيع ، وكانت الشهور القليلة التي قضيناها
معا قطعا من نعيم الحياة . وكان يخيل إلينا أن الشتاء الذي
يحطم قلوب الناس بالألم ، ويملاً عيونهم بالشجون ، سوف
يضل سبيل وكرنا الآمن ، وسوف يدعنا نرتع خالدين في
روض الربيع .

سألت زوجتي يوما وكنا نستحم في أشعة الشمس
الصافية صباح يوم من أيام أبريل :
هل يمكن أن تظل الكأس هكذا حلوة نقية ؟
قالت ولم لا ؟

قلت وهلا نمل إذا ظلت كذلك ؟
فاقربت مني بدلال وانمطاف ، ثم أحاطت عنقي

بذراعها ، ونظرت لى نظرة طويلة فرحة ، تدفقت فيها
عينها حلاوة وطراوة ، وقالت وصوتها يرن رنين اللطف
والحنان :

هل تفكر فى الملل هكذا سريعاً ، إذن دعنى أحمل
إليك اليوم بشرى ، تطرد من ذهنك خاطر السوء .
قلت : خيراً .

قالت : أما للبشير من ثواب ؟

قات : أعدك بشرفى .

قالت : ألا تستطيع أن تحزر ؟

قلت : أبداً .

قالت : أما لك من أمنية تصبو إليها ؟

قلت : أمنيته أن أراك إلى جانبى دائماً ، نعمة فى البؤس ،

وشريكاً فى الصفو ، وسلوى إذا عز العزاء .

انفجرت شفتاها عن ابتسامة هائلة ، ثم فاجأت خدى

بلمسة قاسية من أناملها الرقيقة وقالت :

يا لك من خيث ! أمنية أخرى . أمنية شيوخ لا أمنية

شباب ، أمنية نصبو إليها معاً ، ويوشك أن ينحسر عنها
حجاب الغيب . . .

قلت : دعيني من التخمين .
قالت : إني شعرت بحركة !
فتبسمت من قولها ضاحكا وقلت :
وما يعينني أنا من هذا الشعور ؟
قالت : أغبي أنت ؟ إنها في أحشائي ، إنها جنين
يرتكض هناك !

جنين . . . يرتكض . . . هناك ؟ !
إمراة يرتكض في أحشائها . . . جنين ؟ !
هل يمكن هذا وأنا . . . عاقر ؟
لم أستطع لأول وهلة أيها السادة أن أوفق بين هذين
النقيضين . فظللت لحظة ساهم الوجه كأنما غمرني فرح هائل
بهذا النبأ الفظيع ؛

ثم تمثلت لي الجناية على شرفي شيئا فشيئا فأحسست
أن صاعقة تسقط على رأسي ، وأن قبراً يتفتح أمامي ،

وشددت قبضتي كأنما أستعد للقضاء على عدو عنيد .
تولاني جنون فخطر لي أن أخنقها ، أو أروى الثرى
من دمها ، لكن من يبقى للمجرم الثاني ليظهر من أنفاسه
جو الحياة ؟

وكانت تتقهقر أمامي مرتاعة ، كما يتقهقر تائه الغاب
أمام نمر مخيف ، فصحت بها زائراً :

عرضي يا امرأة ! شبابي وحياتي وآمالي أين ذهبت بها
جميعاً يا شقية ؟ في أية مقبرة دفنتها ؟ في أية بؤرة دنستها بالعار ؟
رباه : أما من بحر من الدم أغتسل فيه ؟

ضحكت الأفعى ضحكة مقتصبة ، وقالت في صوت

مختق :

كفى ، كفى بالله ! إنك تخيفني ، إنك تقتلني ، إنها منك
دعابة مميتة . اضحك . ابتسم . أرجوك . دعني بالله !

حدقت في عينيها المتوهجتين في وجهها الشاحب ، فاذا
هما تشعان كعهدي بهما ، وإذا في شعاعيهما إلى جانب الخوف
والأسى ، صفو ورحمة ونقاء .

كانت كالطفل الساذج تخيفه بوجه عفريت فيتيقك
بذراعيه ويتوسل إليك في صياح وبكاء .
أيها السادة :

تكن القلوب في ثورتها أشد من الحجارة قسوة ،
فأن من الحجارة ما تتفجر منه الأنهار . . لقد شمرت ألى
أجبن أمام هذا الحسن المغلوب ، قتلتني صورة ذلك الحب
الذابل في إطارها المنكود ، خفضت رأسي واندفعت إلى
الباب هاربا ، إشفاقا على الشعلة المتقدة أن تطفئها الدموع .
وأى عزم ، بل أية قوة ، تقف أمام المرأة الباكية الحسناء ،
فلا تذيبها النظرات والزفرات والدموع ؟

وسرت في طريقى إلى الدكتور سيداروس طيب
الأسرة وصديقها بطرف ذاهل وعقل مسلوب ، وقلب
تتنازعه شتى الغصص والآلام .

لإذن كانت نظراتها الباسمة زورا ، وكانت قبلاؤها الحلوة
خداعا ، وكانت ضحكاتها الرنانة ترابا تذروه الشقية في
عين عمياء ، وألقاؤها التي كانت تقطر عسلا ، كان مزاجها من

علقم وصاب ! .

وتلك الساعات التي كانت تقضيها بجانبى ، كانت
تملؤ ما بالتفكير فى رجل آخر يبهجها خياله ، وتسعد لها ذكرام
فتبسم لى من حيث تراه هو فى ضباة حلم لذيد . وتقبلنى من
حيث تتصور فاه هو ينبوع الهوى والهناء !

وتواردت إلى ذهنى المضطرب صور متعددة لوجه
ذلك الغادر اللئيم ، ثم حصرت الهمة أخيراً فيه ... هو بعينه
فما فتى يزورنا مرة فى كل أسبوع ، وطالما سمحت لها
بالخروج فى حمايته ، ويالها من حماية ، حماية الذئب للنعاج !
ولماذا أغش نفسى ؟ لقد رأيتها يتضا حكان مراراً ...
منى طبعاً ، ورأيتها مرات يتها مسان عند مارأيانى من بعيد...
يا لله ! كم كنت غيباً أبله لماذا يارب لم أفهم كل هذا من زمان ؟ !
ليكن المجرم ابن عمها ، أو ابن خالها ، أو ابن أى شيطان
من ذوى قرباها أو ذوى قرباى ، فهل هما ملكان ؟ وهل
محول بينهما إلا حكم العادات والشرائع فاذا استطاعا أن
يتناسيا هذا الحكم يوما فى حضرة الليل والوحدة والشباب

ألا يعودان إلى حيث كان المصري القديم يتزوج من أخته
فلا يشعر لهذا الاثم بخزي ولا عار ، أو إلى أبعد من ذلك ،
إلى حيث كنا سواما لا نخضع لعادة أو شريعة أو نظام ؟
نحن ضباع أسيرة سجنتنا التقاليد والأديان في أقفاص
من حديد ، فزهدنا في نبش المقابر ، وعففنا عن أكل
الرمم ، وتجلت علينا تقوى العاجز ووداعة الأسير . حتى
إذا حطمت أقفاصنا يوما عادت دعتنا وحشية ، وعفاننا شرها
وتقوانا نذالة ، وزهدنا شهوات ! !

أطلقوا الحرية للضباع المغلولة يوما ، ثم انظروا ماذا
تفعل الضباع !

وكان النذل يضحك مني دائما . . . طبعاً !
وكان يجلس بين أصدقائه ، وربما أصدقائها هي أيضا ،
من يدري ؟ ليس للمرأة قرار تنتهي عنده إذا سقطت .
إنها كشارب الخمر عند ما تتذوق لذة الاثم في كأسها
الأولى هيئات أن ترجى لها توبة أو رجوع . . . كان يجلس
بينهم فيضربون بي المشل في الغفلة والعمى والبلاهة . . .

وبالطبع ؟ كان الناس يحترموني من أجلها ، ويرحبون
في شخصي بشخصها ، حتى إذا خلوا إليها أو إلى أنفسهم
طفقوا يستهزئون !

وشرفي كان ولا شك سمر المجالس ، ومضغة الأفواه !!
وهذا الجنين ؟ ترى في أي لون يكون شعره وعينه ،
أشبهها بأم شبيها به ؟ وماذا يقول الناس عنه غداً إذا لم يروا
في أفقه تلك العقدة الرومانية العالية التي امتازت بها أسرتنا
من زمن طويل !!

الحق أيها السادة أن هذه الهواجس كوتني بمكواة من
نار ، فشعرت أن دمي يحترق ، وأحسست أن شهوة القتل
تتسلط على من جديد ، وبدأ لي كل شيء أمامي مخضباً
بالدماء . ورأسي هذا أحسست أن فيه زلزالاً هائلاً يوشك
أن يتمخض عن بركان يفرق الخائنة وصاحبها في بركة من حمم
ونار . . .

وأخيراً وجدت نفسي في عيادة الطبيب ، فاستأذنت
ودخلت ، ثم أخذت معه في حديث .

— هل تذكر يا دكتور أنك أجريت لي عملية منذ تسعة أشهر تقريباً !

— نعم
— أتذكر أنك قلب لي يومئذ قبل أن تجري العملية لأنها لن تذهب بغير توضيح ؟

— نعم . وأذكر أنك رضيت أن تصبح بعدها عاقراً ، وأنى استكثبتك إقراراً بهذا الرضاء .

— ألا يمكن أن تكون مخطئاً يومئذ ، ويكون هذا العقم خرافة ؟

— يمكن إذا تقوض الطب وأصبح كله خرافات !
— أوافق أنت ؟ ألتستطيع أن تؤكدي بشرفك أن قوى الوجود جميعاً أعياء من أن تهينى ولداً ؟

— نعم . وأقسم بشرفي .
— فكر يا دكتور . فأنت مسئول بهذا القسم أمام الله وضميرك عن دماء تهدر ، وأرواح تحتضر ، ويدت ينهار .
— لقد فعلت وأكرر لك قسمي .

— دكتور . . . قد أتتني اليوم زوجتي تبشرني بأول حركة من حركات جنين .

وتنبه الطبيب عندئذ ، وكان يلهو عن النظر إلى بمبرة يعبت بها في قلم ، وكأنا أحس في الأثر خطراً فوق ما قدر ، وشعر أن عاصفة تهدد ناحية من نواحي السلام ، فقطب جبينه وعبس لحظة واحدة ، ثم أمر يده على جبهته بقوة ، ولشد ما عجبت حينما رأيت أساريره تنفرج ، ورأيت ينظر لي بسخرية ، ثم يضحك مني ملء شذقيه !

قلت : وفي صوتي ثورة الغضب :

عفواً يا دكتور . أنا لست صديقاً هنا . أنا مريض يدفع أجراً . وما أظن وجهي وجه ناس ، ولا أرى على صدرى مرآة مقعرة ينظر الناس إلى أشكالهم فيها ويضحكون ! ضع نفسك مكاني ، وقل ماذا كنت تفعل لو أن لك زوجاً تراها ملكاً تنزهه عن عيوب الناس ، ثم أتتك زوجك هذه تبشرك بخليفة ، أنت الرجل العاقر العقيم . . قل !

وكان الطبيب ما زال يتفرس في وجهي بشراهة مخنقة ،

فأجاب ضاحكا :

أولست أعتقد فيها الشرف والطمهارة ؟

قلت : نعم

قال : إذن كنت أوقن فى الحال أن الأرواح الخاطئة
قد تظاهرت تحت عرش الله ، فشاء سبحانه وتعالى أن يبعث
إلى هذه الأرض البائسة بمسيح جديد ! ! ! . . . كنت
أفرح وأعتقد أنه ابن الله ! . . .

غاضبى هذا التهم الجارح من رجل أعده صديقى ؛
فصحت به ثائراً :

احترم مصائب الناس يا رجل ! أطييب أنت أم
« أرجوز » ! ؟ . . .

قال : لا .. لا .. إلا الشتائم ! ثم دعنى أسألك بدورى
ألم تأتنى هنا مع زوجتك منذ عشرين يوماً ؟

قلت : نعم .

قال : أتذكر أنها كانت مريضة ؟

قلت : نعم .

قال : أتذكر مم كانت تشكو ؟

قلت : وتفكيرى متجه كله إلى الدهشة من هذه
الأسئلة العقيمة :

كانت تطمئ أفلذاً من دم متجمد !

قال : أنت عاقل ؟

قلت : كذلك كنت قبل أن أراك !

قال : فكر يارجل !

ثم أمسك بحمة أذنى بين سبابته وإبهامه ، فضغطها
ضغطاً مؤلماً ، كأنه يعاقب طفلاً على ذنب جناه ، واستمر
يقول :

هل عرفت امرأة تحيض ، ثم تحمل ، ثم تشعر بالحمل
يتحرك فى أحشائها ، وكل ذلك فى عشرين يوماً ؟ إن الله
جل جلاله يصنع هذا فى خمسة أشهر ، فهل لديكم صانع آخر
يستطيعه فى عشرين يوماً ؟ . . فكر يارجل ! نحن فى أول
أيام إبريل ، ولكل إبريل أكذوبة ، ولكل سعيدة من

النساء في هذه الأُكذوبة نصيب . والحب يا صديقي تؤوم
توقظه المرأة بأمثال هذه المفاجآت !

شعرت عندئذ أن عقلي يمس في هذه الأُزمة قراراً
وبدلاً من أن يظل هاوياً في ذلك البحر العميق ، بحر
الشكوك والأوهام ، ارتفع بقوة حتى أشرف على السطح
فرأى النور وشم النسيم ! .

واستحييت من نفسي وصديقي ، فنظرت إلى الأرض
واستغرقت في لذة هادئة وذهول جديد . ثم عاودني اليقين
كله ، وتبخرت من ذهني الشكوك كلها ، وعجبت لنفس
تقيمها كلمة وتقعدها كلمة ، ثم حدثت روحى في صوت
مسموع :

حقاً ما أسرع ما تنهاوى بعقولنا خواطر السوء !! «

وسكت الراوى ، فظل السامعون سكوتاً ، كأنما
تشربتهم روحه أجمعين . . .

كانوا جماعة من الأصدقاء يجلسون إلى نادٍ على شاطئ

النيل ، فيسمرون هناك على ضوء القمر ، ويقصفون على
سكينة الليل ، ويلثمون - وكلهم شفاء - روح الربيع .
وكانوا يتحدثون عن أكاذيب أبريل ويروون عنها
شتى العجائب ، لكن قصة من هذه القصص لم تنل من
إعجابهم وألبابهم ما نالت قصة هذا الراوي الأخير .
وانتظروا جميعاً بصبر ذاهب أن يكمل الرجل حديثه ،
لكنه تناساهم تماماً ، ثم أشعل لفافة تبغ ، وطفق ينفث
دخانها في أناة وسكون !

فصاح به أحدهم متعجلاً نهاية الحديث ؟
وزوجتك المظلومة ، كيف وجدتها عند إيابك ، وهل
غفرت لك ترويعك إياها بهذا الوجه المخيف ؟
فأجابه الراوي يبرود :

زوجتي ؟ من قال لك إني متزوج ؟
فهاج السامعون وماجوا ، وصاح به سامع آخر :
إذا لم تكن هذه المرأة زوجتك فعلام كانت هذه
الثورة الجوفاء ؟

ثم أهاب به ثالث كأنه يعقب على سؤال أخيه :
ولماذا لم تتركها تبحث لطفلها عن أب صالح سواك ؟
فأجاب الرجل ضاحكا :

سادتي :

لقد كذبتكم ، فعفوا ! ألسنا اليوم في أول أيام إبريل ؟



مَصْرَعُ حِمَارٍ !

عثر لأول مرة في منتصف الطريق بين القرية والسوق
وكان الوقت ظهرا وشمس يولي وتسكب على الأرض
شواظا من نار .

وكان حمار الحاج ياسين قليل العثار . . .
ولم يكن بالطريق في هذه الساعة أحد ، ولا شجر فيها
ولا ظل ، وقضبان السكة الحديدية الممتدة على جانبها تكاد
تنصهر تحت وقدة الهجير .

وأحس الحاج ياسين وهو يمتطي حماره عائدا به من
السوق أن لهذه العثرة ما بعدها ، فقد كان الحمار يلث على
غير عادة وكان العرق يتصبب من جسمه الناحل الهزيل .
ثم عثر الحمار عثرة أخرى ، ثم عثر عثرة ثالثة ، ثم

سعل سعالا جافا خرج من حلقه كأنه حشرة خائفة في صدر مأزوم . . . وأخرج لسانه الأبيض المتسخ من بين فكيه وتدلّت أذناه .

لم يحدث لعمار الحاج ياسين شيء مثل هذا في ماضيه ، ولذلك لما عثر للمرة الرابعة ، وبركت قوادمه في الأرض ، وثب الحاج ياسين من فوق ظهره ، وفي قلبه إحساس قوى بمخطر مبهم قريب .

ولم يكد العمار يستوثق من نجاة سيده حتى خر صريعا على جنبه ، ومد عنقه ، وألصق رأسه بالأرض ، وحرك ذنبه حركات ضعيفة متعبة ، وتدافعت أفعاله متوالية عميقة كأن في صدره جوعا وظما للهواء ، وسالت دموع من عينيه الداميتين فاختلطت بدمعه ، وبدأ شعره المرقش المنحول الذي وخطه الشيب كأنما يتساقط مع العرق الغزير تاركا جلده الخالي أعرجى من شجر الخريف .

بالاختصار كان عمار الحاج ياسين محتضر ، وينظر إلى صاحبه من خلال العشاوة التي حلقت في عينيه ، نظرات

تفتت الكبد وتصدع الفؤاد ، نظرات حزينة ، دامعة ،
شاكية بلا صوت ولا تهديدات ، هاتفة بغير لغة : ارحموا
البائس الأخرس . . . نظرات نابت عن فمه الأبيم في
تحية الحاج ياسين تحية الوداع .

وحاول الحاج ياسين أن يفعل شيئا نخلع قلنسوة رأسه
وكانت من اللباد ، وأخذ يعترف بها الماء من قناة قريبة
ويصبه في فم الحمار المحتضر صبا ، والحمار يعب من الماء عبا
ولا يشبع ولا يروى . . .

وفي النهاية جلس الحاج ياسين في جوار حماره على
الأرض الملتهبة ، يمسح العرق عن جسمه برفق ، كالأم
الشكلى ، وقلبه واجم حزين .

كان الحاج ياسين يحب حماره هذا ويعزه ، لأنه رافقه
أربعة عشر عاما طويلة ، شاطرته فيها العز والرخاء كما شاطرته
الجوع والمحن ، وحمل البردعة الحريرية واللجام المفضض ،
بنفس الروح القانعة الوادعة التي حمل بها غرارة القمح
وغيط السباخ . . .

وفي طول الأربعة عشر عاما ، في الخير والشر ، كان
حمار الحاج ياسين مضروبا به المثل في الأمانة ، والغيرة
والكبرياء .

فلم يشهد أحد ما في يوم من الأيام حمار الحاج ياسين
منكبا على مخلفات زملائه في الطريق ، يشمها بشراة ، ثم
يرفع رأسه مستنشيا كما يفعل سائر الزملاء !

ولم يعرف أحد عن حمار الحاج ياسين أنه طامن من
خطاه السريعة مرة ليطارد أنثى من بنات جنسه يقطرها
بشره وإلحاح كما يفعل سائر الزملاء !

وقد كانت لهيئة دائما صدى في قلوب بنات جنسه
يملؤها تهديدات خرساء ، كما أن بطنه الضامر ، وصدره
العامر ، وكفله المتلي ، وشعره « القروشي » وأذنيه
المشرعتين على رأسه الجميل ، كانت كلها تجمعاه مطمح
أنظارهن أينما غدا وحيثما راح

والفضيلة الكبرى لحمار الحاج ياسين في كل عمره
الطويل ، أنه دائما كان حرا تكفيه الإشارة فما ألجا صاحبه

يوما إلى عصا ، ولا اضطره لهماز . . .
كان يجري دائما بآخر قواه ، وكان هو السابق المجلى
دائما كلما اتفق له أن يجري مع رهط من مطايا القرويين . . .
ولم يسمح أبدا لهما أن يتقدم عليه ، ولم يسمح لنفسه
أبدا أن يتأخر عن هماز .

وكان يشق طريقه إلى صدر القافلة دائما مهما كانت
الظروف ومهما اشتبك الراكب وتراكم بعضه على بعض
في الطريق . . .

ولهذه الفضائل مجتمعة كان القرويون كلهم يعجبون بهماز
الحاج ياسين ويحسدونه عليه ويساومونه على شرائه بأغلى
الأثمان ، ولكن الحاج ياسين كان يعتر بهمازه اعتزازا
غريبا لأنه كان يعده هدية من سماء الله . . .

ذلك أنه وقع له صدقة ، وبشمن بخس في سنة ١٩١٩
من مخلفات الحمير التي جمعتها السلطة العسكرية البريطانية في
سنة ١٩١٧ في حربها مع الأتراك على الشاطئ الشرقى
لقناة السويس .

وكانت السلطة العسكرية في ذلك العام قد جمعت
خير حمير البلد وبغالها ، بأبخس الأثمان ، ودست بينهم بغير
قصد حوالى مليون رجل كلهم في عنقوان الشباب ،
دفعت ثمنهم لمصر في نهاية الحرب بنية من الحجر العارى
في الجزيرة على شاطئ النيل . . .

وعلى ذلك فقد كان الله وحده هو الذى يعلم فى أى
مهد ولد حمار الحاج ياسين ، وفى أى مربوط من مرابط العز
والدلال تلقى هذه المبادئ العالية وهذا الخلق الأبقى القويم ،
والله وحده أيضا هو الذى كان يعلم من كانت أمه ،
ومن كان أبوه . . .

كان حمار الحاج ياسين يوم أطلق من الأسر يشبه
يتيما خارجا من ملجأ اللقطاء ، قد يكون من سلالة لصوص ،
وقد يكون من أصلاب أمراء . . .

لكن الأيام التالية ، كل يوم منها كان يبرهن للحاج
ياسين برهانا جديداً على صفاء النبع الذى انحدر منه حماره ،
وعلى طهر السلسلة التى انتقل فيها من صلب كريم إلى

صلب كريم ! .

وفي حدود ثروته التي كانت تتسع أحيانا وأحيانا
تضيّق ، أكرم الحاج ياسين حمّاره ، وأخلص له كما
أخلص له الحمّار .

ومن أجل هذا الماضي كله جلس الحاج ياسين بجوار
حمّاره العجوز الهزيل المحتضر يمسح عرقه برفق ، ويمسح
الدموع من عينه بسداجة فلاح ، ولو كان ابنه هو المسجى
أمامه على الأرض ، لما عزّ عليه أكثر مما عزّ عليه هذا
الرفيق الطيب ، وهذا الصديق المسعف الكريم . . .

ويدنا هو في حزنه وبؤسه ووجومه إذ رأى الحاج
ياسين حمّاره يرفع رأسه ببطء ، ثم يتلع عنقه وينشر أذنيه
المدلاتين فوق رأسه كما كان ينشرهما متوازيتين مشرعتين
أيام الفتوة والشباب ، ولمح في عينيه لمعانا غريبا يدب في
ظلامهما الكشيف ، وتطلع الحاج ياسين حيث كان يتطلع
حمّاره فرأى قافلة من الحمير مقبلة من ناحية السوق ، وعليها
أصحابها وما امتاروا من السوق

وكلما اقتربت القافلة ، كلما استشرف لها حمار الحاج ياسين ، حتى إذا دنت منهما ثنى الحمار قوائمه الأربعة كمن يتهيأ للقيام ، ثم حاول النهوض ولكن خائنه قواه ..

ونهب حمار من حمر القافلة ، فأجابه حمار الحاج ياسين بصوت خافت ضئيل مقطوع ، ثم استجمع قواه كلها بإرادة جبار ، ظهر أثرها في جسمه عرقاً ، وأحالت أنفاسه المتدافعة إلى لهات ... ولكنه وقف في النهاية ...

وهز ذنبه بعنف المستमित ومد رأسه إلى الحاج ياسين كمن يقول له هيا اركب .. قد سبقنا الرفاق ! ..

وفرح الحاج ياسين بهذا البعث المفاجيء ، فوثب على ظهر حماره الذى كان ينظر إلى الحمير التى سبقته فى هذه اللحظة بحوالى العشرة الأمتار نظرة الصياد للصيد الطريد ... وما هى إلا لحظات حتى كان حمار الحاج ياسين فى الطليعة ، حيث كان دائماً ، وحيث يجب أن يكون ، فى مركز القائد والدليل ...

واندهش الحاج ياسين ، وقص على زملائه كيف أن

حمامه قد حزن منه وتماوت وضحك من ذقنه ، وتعلم اللؤم
فى الزمن الأخير !!!

وسعل الحمار كأنه يحتج على السخرية من آلامه ، وأن
كما لو كان مخلوقاً بشرياً أصيب بطعنة قاتلة من نكران الجميل ..
ولكنه استمر سائراً فى الطبيعة ، وأنفاسه تتدافع ،
واللعاب يتدفق من فمه كأنه يتدفق من ميزاب ، ممتزجا
بالدمع من عينه الخابية ، وبالدم من قلبه المذبوح ...

وعثرت قوادمه ، وانكفأ بوجهه على قضيب من
قضبان السكة الحديدية ، ثم هوى إلى الأرض ككتلة من
خشب وهوى بجانبه الحاج ياسين مشيعا بعشرات من
ضحكات وفكاهات زملائه القرويين ...

ثم نهض الحاج لاعنا وضرب حمامه عصا لم يرتعش
تحتها جلده ولا بدا أنه أحس بها مجرد الأحساس ، وكانت
لمسة العصا فى شبابه الماضى تكهر به وتجمع به إلى شر
الفايات ...

لقد كان الحمار فى شاغل عن الحاج ياسين وعصاه

ولعناته بالتطلع إلى القافلة السائرة ، وإلى الحمير التي سبقتها ،
يعد وراءها عنقه حتى ليكاد يمس به ظهره وبوده لو استطاع
أن يقوم ، وأن ينتصر عليها انتصاره الأخير . !

ولكن هيهات فقد جحظت عيناه وغار ما بين ضلوعه
ولم يكن بين ضلوعه شيء من فرط الهرم والهزال والنحول ،
وطفح الزبد من فمه مصحوبا بالنجيع .

وأدرك الحاج ياسين وحمارة يشد قوائمه الأربعة ، ويمس
برأسه الأرض عاجزا حتى عن أن يثير بأنفاسه الواهية ناعم
التراب ، أدرك الحاج ياسين أن حمارة لا يتماوت وإنما يموت ،
فأكب عليه في النهاية يبكيه !

وانطفأت في لحظة ذبالة المصباح بعد أن أضيفت في
قبسها الأخير صفحة من المجد إلى التاريخ الحافل الذي خطته
على الأرض حوافر هذا الحيوان النبيل !

أمرقويقت

كان الهلال الكبير الجانح إلى الغروب بقوسه الأحمر
المفضض ، عاجزاً عن إضاءة صفحة النيل في الأقصر ،
وأطلال المعابد القديمة ، وبقايا قبور الفراعنة على التلال
الغريبة في وادي الملوك

وبدت الأقصر في سكون الليل الأخرس ، وفي
ضوء الهلال الخالي كمدينة الأشباح الحزينة ، وبدت أبواب
معبد الكرنك في نهاية طريق الكباش ، كما بدت عمدانه
الكبرى ، كما بدت كل الخرائب المتداعية من حوله ،
كأنها تعمل بلا صوت ولا دموع على ليالي المجد التي ذهبت
ولن تعود

وعلى صوت الأرغول شقت سماء الليل الصامت ألحان
هادئة ووديمة ، ومبلة بالعبرات ، مقبلة مع النسيم من سفينة

شراعية ، محملة بالتمر والدوم ، وسائرة في النيل ببطء نحو الشمال :

الأوله آه . . .

والثانية آه . . .

والثالثة آه . . .

الأوله ملك رعرع في مغانيكى

وكان زينه على الشطين

والثانيه مجد انطفى قنديله يوم فيكى

على عينا طفاه البين

والثالثة حنة أثر لونها على إديكى

قطع فينا وندى العين

يا تحت رمسيس يا بيت العز يا طيبه . . .

وتفانى الصوت شيئاً فشيئاً حتى غاب تماماً في جوف
الظلام البعيد ، وتمثال رمسيس الضخم الذى حطمته القووس
الرومانية وبعثرت بقاياه في ترى المعبد الغربى ، قطعة منه
تحركت على نبرات الصوت القانى ، وكانت معلقة بين اثنتين

من أخواتها ، فوقعت إلى الأرض حاملة معها دمعة من
قلب رمسيس . .

ونعبت بومة على طلل قائم بجوار البركة المقدسة في
معبد الكرنك ، وانفتح باب على صوتها في كوخ مبني
بالطوب الأخضر في وسط الخرائب الحجرية ، وأطلت على
أنقاض المدينة القديمة ثلاث عيون :

الأولى عين محبة طيعة ، ممتلئة بالطيبة والدعة والحنان .
لأنها عين امرأة تنتظر !

والثانية عين شريرة تبرق بشراسة كما تبرق عين النمر
في الظلام . . لأنها عين مجرم يترقب .

والثالثة عين رجل البوليس ، عين هادئة كصفحة
النيل ، خابية كضوء القمر ماكرة كعين الثعلب . مشرفة
من بين أنقاض العمدة المحطمة على ساحة الكوخ .

الأولى عين « هنية » التي فتحت باب الكوخ بهدوء
ووقفت على أعتابه ترقب الطريق ، وتحقق في حقل القصب
القريب . . .

والثانية عين « حمدان » زوج « هنية » المجرم القاتل ،
الفار من ليمان طره ، حاملا معه عشرة أعوام في قطع الحجر ،
والنوم على الحجر ، والمشى المقيد في الأغلال ..
والثالثة . . . عين مأمور الأقصر الجديد .

اقتحم حمدان باب الكوخ ، وعلى شمع من ضوء
الهلل الفارب منبث من كوة مفتوحة بالجدار الغربى
للكوخ ، رأت هنية وجه زوجها ، وأرادت أن تصيح من
الرعب ولكن صوتها انحبس ، وبدأ وجهها فى هذا الضوء
الضئيل كوجه مومياء ماتت على آلة تعذيب .
وناداه حمدان بصوت خافت « قولى يا فاجرة من
تنتظرين ؟ »

قالت وصوتها مختنق : « سلامة يا حمدان »
قال تريدن أن تسرقى عرضى وأخى فى يوم واحد .
لا يا « بنت الكلب » لقد تركت سلامة أخى حيث
لا تستطيعين أن تدنسيه . . . قولى ، من تنتظرين ؟
قالت : أقسم لك بالعالى أليك . .

فجذبها بأحدى يديه من ضفائر شعرها الطويلة ، جذبة
كشفت له كل وجهها ، ثم لطمها بالأخرى لكمة أطارت
رأسها من الطنين والدوار ، وقال : « حسبك ، دعينا من
أبي وأخي . وقولي من تنتظرين ... لقد أصبح اسمي
تسلياً في أفواه الناس ، لأنهم يتكلمون عن عرضي في الأسواق
لأنهم يتطلعون لي باحتقار ، ويسبوني بلا ألقاظ ... لي أربع
ساعات وأنا واقف أنتظر ، يشرب من دمي البعوض ... وقد
قتلت رجلاً من أجلك وعشت كاليت الحى ، فتقولي .. قولي
من تنتظرين ؟ »

قالت والدموع تتساقط من عينيها ... « أنتظر سلامة
يا حمدان ، أنتظره لأعطيه نصيبك من الشاى والسكر
والكعك والزاد . »

قال وهو يهز رأسها فى يده بعنف : « إننا فى منتصف
الليل الآن ، وسلامة يحمل لى زادى فى مطلع الفجر ، فتقولى
يا شقية ، قولى من هو ؟ »

قالت لى لا أعرف متى نحن ، ولكنى أفتح له الباب

عندما أسمعہ ينب من الخارج نقيب اليوم ، وقد سمعت
النقيب الآن قفتحت الباب . . . كنت ساهرة من أجلك
طول الليل يا حمدان ! .

ومزق ما بقى من سكون الليل وحرمة التاريخ وأشجان
الخرائب القديمة صوت ثلاث رصاصات ، الأولى أصابت
قدم حمدان اليمنى ، والثانية أصابت قدمه اليسرى ، والثالثة
أصابت ذراعه المعلق فيها حزام البندقية ، فترك امرأته ،
وهمَّ بالدفاع عن نفسه ، فاذا أربع بنادق مصوبة إلى صدره ،
بنادق جنود ، وإذا صوت مأمور الأقصر يطلب منه
التسليم . .

كان حمدان يعيش بعد فراره من السجن في منفاه
الاختياري بالضافة الغربية بين قبور القراعنة ، متقللاً كالضبع
من وجار إلى وجار ، يأنس إلى الذئب وابن آوى ، ويرهف
أذنه وعينه كلما سمع صوت إنسان ، وينام والبندقية تحت رأسه
في كهف من كهوف وادى الملوك له أربعة أبواب ، ذات

أعتاب حجرية لا تظهر عليها طبغات الأقدام ، ويتلقى الزاد والماء في جُر كل يوم على يد أخيه « سلامة » يرقبه وهو مقبل من أعلى الجبل ، حذر العيون والأرصاد . . .

ومنذ فر حمدان من سجن طره ، قتل على الشاطئ الغربى ، فى أوقات متفرقة ، مأموران لمركز الأقصر ، وحوالى ثمانية جنود ، وأربعة أشخاص ، وكل الناس كانوا يعرفون القتلى ، ولكنهم يحسنون السكوت ، ورجال البوليس أنفسهم لم يكن أحدهم يذهب إلى الشاطئ الغربى إلا تاركا وصيته فى الدار . . .

وقد شوه حمدان أكثر من مرة فى سوق الأقصر فى وضع النهار ، ولكن العيون كانت تراه ، والأفواه تنطبق وتكتم سره فى قرار القلوب .

وقد ذهبت عبثا كل الجهود التى بذلت للقبض على حمدان . .

وعين للأقصر مأمور جديد . . . وكان يضحك كثيرا ، ويبدو فى وجهه أنه بلا سريرة ، ولما يمشى تضرب

الأرض قدماه بصوت غليظ . وكانت عيناه هادئتين ولا
تبرقان . وقد سحب كل الجنود المنبشرين في وادي الملوك ،
وأعلن أكثر من مرة ، أن له أربعة أولاد ، وأنه ليس على
استعداد لأن يروى رمال الصحراء من دمه أو دم أحد من
رجالہ بلا فائدة ، ويكفي ما شربته غدرا من دماء الآخرين ،
وإن كان للحكومة ثأر عند حمدان ، فليأت رئيسه الأعلى
وزير الداخلية يطالبه وجها لوجه بما يشاء وكان عندئذ
يضحك ضحكة بلهاء ، ويقبل ولده الصغير الذي كان يلزمه
باستمرار ، ويقول لسامعيه حرام أن أموت وأترك ورأى
مثل هذا أربعة أيتام . . .

وكل شيء كان ينقل بأمانة إلى حمدان ولكنه لم ينخدع
بالسكون ، وظل ينام في وادي الملوك والبندقية تحت رأسه
وكل سماره النجوم ، والتماثيل ، والتهاويل المرسومة على
جدران الكهوف الحجرية ، بألوان قهرت أربعين قرنا
عوادي البلى والفناء ، وأرواح حشيشسوت وطوطميس وسيتي
ورمسيس فارة هي الأخرى من معابدها الشرقية ، الحافلة

بذكريات الرق ، وضياع المُلْك ، وذل البنين ! . . .
على أن المأمور بالرغم من هذا السكون الظاهر ، وهذا
التمرد على الواجب والقانون ، كان في أعماق نفسه يفكر في
حيلة للقبض على حمدان . . .

وظل يبحث ويستقصى ، ويجمع وي طرح ، في وسط
الجو الهادئ الذي خلقه حول نفسه حتى تأكد أن حمدان
يتلقى زاده عن يد أخيه سلامة ، وأن بومة كانت تنع في
جحر كل ليلة في خرائب المعبد ، بومة بشرية ، فينفتح على أثر
نعيمها باب الكوخ الذي تسكنه هنية امرأة حمدان ، وتظهر
هي من وراء الباب ، فتنتظر حتى يوافيها سلامة ، فتعطيه
قصعة ممتلئة ، وتأخذ منه قصعة فارغة ، وتحدثه عن زوجها
قليلًا ، ثم تقفل الباب بعد أن تودعه وتتمنى له أن يصبح
على خير . . .

وعندما انكشف للمأمور هذا السر كان سعيدا كالذي
وفق إلى حجر الفلاسفة ، ولسكنه ظال على هدوئه وقلة إهتمامه
وضحكاته البلهاء ، حتى إذا كان يوما ما واقفا بلا حاشية

وَبِمُنْتَهَى البَسَاطَةِ فِي المَعْبَدِ البَحْرِ يشرح سر الصور المرسومة
على جدرانها لأبنائه الأربعة ، طلع عليه حمدان . . .
ولم يكونا في حاجة إلى وسيط للتعارف ، فقد كان كل
منهما يحلم نصف وقته بأخيه !!

وحيا. كل منهما الآخر بنظرة وابتسامة ، ولكل منهما
عين في قفاه ، ثم شد كل منهما على يد الآخر كأنما يمتحن
قواه ، وفتح المأمور الحديث فتمال لحمدان : أتدرى أننى
ممعجب بك إعجابى ببناء هذا المعبد القديم ؟ . . أتدرى أننى
أحيانا يخيل لى أن واحدا من الفراعنة قد تحدى الخلود
والقدر وتقمص فيك هذا الجسد القوى المفتول ؟ . .
وأجابه حمدان باسمه :

— العفو يا حضرة المأمور !

فاستأنف المأمور :

إننى معجب بك حقيقة ، لأننى لا أمزح ، معجب
بقوتك وشجاعتك وشهامتك ، بل وأستطيع أن أقول لأننى
أحبك ، وبهذه المناسبة أريد أن أحذرك من خطر ينتظرك ،

إن سعادة المدير أرسل يقول لى إنك تزور بيتك مرة فى منتصف كل ليلة ومرة فى مطلع الفجر ، ويطلب منى أن أتربص لك فى إحدى هذه الساعات . . .

وقاطعه يا حمدان :

فى مطلع الفجر قد يكون هذا معقولا ، وسوف لا أفعل فى المستقبل ، لكن فى منتصف الليل ؟ . . فى منتصف الليل ؟ . . هذا غريب ، أوافق أنت مما تقول ؟

قال كذلك يقول المدير وفى قوله قوة اليقين . . . لكن مالك هكذا ممتقع الوجه ، لا عليك يا شيخ ، لا تبتئس . . . لو قضيت الليل كله فى بيتى فلن أمد لك يدى بسوء ! .

وفى الواقع كان وجه حمدان قد انتقع فجأة ، وارتعشت شفاته ، وبدا كأنما ألف شيطان يذكرون النار التى ارتقدت فى فؤاده بغتة ، ويسائلونه عن هذا الزائر الليلى الذى يعبث بشرفه فى منتصف الليل آمنا شر العيون والرقباء . . .

كانت الطعنة أكبر من شجاعة حمدان ومن دموعه ، لأن شرف الفلاح أكبر فى نظره من الحياة ومن السجن

ومن المشنقة ، فاعتصر قلبه وابتسم ، وشد على يد المأمور
شاكرًا بلا ألفاظ ، وتولى عنه وشفته كشفتي تمثال ، لولا
رعدة تضرب فيها كأنها دمدمة لا تستطيع الخلاص .

ولبث المأمور يرقبه حتى غاب عن نظره ثم أخرج من
حنجرته صوتًا لم يشك أولاده الأربعة في أنه نقيب بوم !!

وقعت البندقية من يد حمدان ، ووقف هو بمجهود
الجسارة يصاب نفسه على ساقين أوهاما الرصاص ، وجلست
هنية على الأرض تنظر من المأمور إلى حمدان ، ومن حمدان
إلى المأمور ، وكلاهما مشغول عنها بالآخر هذا يتطاع بعين
الضعيف المنتصر ، وذاك يتطلع بعين الجبار المقهور .

وانتهت المعركة الصامتة التي لم تدم سوى لحظة على
صوت هنية تخاطب المأمور . . . لقد أحكمت نصب الشرك
يا حضرة المأمور . . . !

ثم التقطت بندقية زوجها ، فأطلقت منها رصاصتين على
صدر المأمور ، ونادت زوجها وهي ترمي البندقية ، وتلوَّى

على كتفها التي أصابها بقة بنادق الجنود .
« ولو انك ماتستاهلش ارح أموت معاك يا حمدان ! »

ونعبت بومة حقيقة في فجر هذه الليلة على خرائب
معبد الكرنك . . .

نعبت على عدد من الجثث . . وأربعة أيتام !! م

